Université 8 Mai 45
Guelma Algérie

جامعة 8 ماي 45
قالمة الجزائر

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Ministère de L'enseignement Supérieur Et de la recherche scientifique

جامعة 8 ماي 1945 قالمة
كليّــة الآداب واللغــات

Université 8 Mai 1945 Guelma
Faculté des lettres et des langues

قسم اللغة والأدب العــربي

محـاضرات في أدب الرّحلة الجزائري

- موجّهة لطلبة السنة أولى ماستر -
تخصص: أدب جزائري

إعداد الأستاذة :
أحـــلام عثامـنيـــــة

الموسم الجامعي: 2019 – 2020

المادة: أدب الرّحلة الجزائري

محتوى المادة:

	المادّة:أدب الرّحلة الجزائري / محاضرة + تطبيق	السداسي: الثاني	المعامل: 2	الرصيد:3

	المادّة:أدب الرّحلة الجزائري / محاضرة + تطبيق
	مفردات المحاضرة
01	الرّحلة في الأدب العربي
02	الرّحلة في الأدب الجزائري
03	رحلة أبو علي حسن الشعرية
04	رحلة ابن قنفذ القسنطيني
05	رحلات العهد العثماني
06	الرحلات النثرية
07	ابن حمادوش
08	الرّحلة في الأدب الجزائري الحديث.
09	بنية النص السردي الرّحلي
10	مكوّنات الخطاب الرّحلي
11	أدبية الرحلة 1
12	أدبية الرّحلة 2
13	أثر أدب الرّحلة في النثر الجزائري
14	أثر أدب الرّحلة في الشعر الجزائري

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

يعدّ أدب الرّحلة من الآداب القديمة المعروفة عند العرب، فهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالرّحلات التي كان يقوم بها الرّحالة لغرض ما، وكان وسيلة من وسائل الاتصال بين الحضارات والثقافات.

يُمثل أدب الرّحلة الجزائري رافدًا من روافد الأدب العربي على مرّ العصور، إذْ يُعَّدُ من أهم المجالات التي استقطبت الدراسات الأدبية لثّراء موضوعاتها وتنوّع مضامينها، فكانت الرّحلة بمثابة مغامرة تُتيح للرّحالة الاتصال المباشر بالعالم الخارجي.

شهدت الساحة الأدبية في الجزائر نشاطًا واسعًا لهذا الفن إذْ برز فيه عدد كبير من الرّحالة استطاعوا ترك بصمتهم في هذا المجال، فقدموا من خلال إسهاماتهم صورة عن ثقافة الآخر، فدوّنوا في نصوصهم الرّحلية كل ما وقعت عليه أعينهم، ووصل إلى مسامعهم عن حقائق المسالك والممالك والبشر، وما مارسوه من أنشطة مختلفة في مناسباتهم وأعيادهم وما تحويه من عادات وأعراف وتقاليد شكّلت الإطار العام للمنحى الثقافي في حياة الأمم.

اتخذت الرّحلة من هذه الناحية أهمية كبيرة لدى الجزائريين، حيث حظيت أعمال الرّحالة بقدر كبير من الشهرة لما تتضمّنه من معلومات قيّمة ومفيدة في شتى المجالات.

لذلك حاولنا من خلال هذه المحاضرات تقديم لمحة عن الرّحلة في الأدب الجزائري متطرقين إلى مفهوم الرّحلة في الأدب العربي وبدايات ظهورها وانتشارها وأبرز روادها، وانتقال هذا الفن إلى المغاربة والأندلسيين، وولوعهم وتفوّقهم فيه وعنايتهم به عناية فائقة تفوق عناية المشارقة، متتبعين آثار هؤلاء الرّحالة الذين ذاع صيتهم في الآفاق.

ثم عرّجنا بالحديث عن الرّحلة في الأدب الجزائري، وخوض أدبائها في هذا المضمار، إذ كان لهم نصيب من المغامرة والمجازفة، وعلى رأسهم ابن الفكون (حسن بن عليّ القسنطيني)، حيث عُدّت رحلته أول رحلة شعرية ظهرت في بلاد الجزائر، لتليها رحلة ابن قنفذ القسنطيني في القرن الثامن للهجرة التي كانت رحلة زيارية ذات طابع صوفي.

وبعد ذلك خصصنا حديثنا عن أهم الرّحلات التي ظهرت خلال العهد العثماني مركزين على الرّحلات المنظومة التي كُتبت شعرا، ثم توقفنا عند الرّحلات النثرية والتي كانت لها حصة الأسد، لأنّ النثر ينسجم مع طبيعة الرّحلة، ثمّ انتقلنا إلى رحلة ابن حمادوش (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال) حيث قدمنا قراءة في العنوان، ودراسة في أسلوبها ومنهجها.

ثمّ عرّجنا إلى الرّحلة في الأدب الجزائري الحديث، وأعلامها، وبعدها خصصنا حديثا عن بنية النص السردي الرّحلي ومكوّناته وأدبيته، وأخيرا أثر أدب الرّحلة في النثر والشعر الجزائري.

1- الرّحلة في الأدب العربي:

١- مفهوم أدب الرّحلة:

فن الرّحلة لون من الأدب يصور فيه الرّحالة كلّ ما شاهده في أثناء رحلته في أماكن وبلدان، ومسالك وممالك، وينقل عادات وتقاليد خاصة بمجتمعات وشعوب، وبمعنى آخر هو فن يُعبر عن مشاعر تختلج في نفس الأديب تجاه كلّ ما يراه. ويعدُّ أدب الرّحلة نوعاً من أنواع التواصل الثقافي، فبوساطته تتعارف الأمم والشعوب وتتقارب، حيث تتعرف كلّ أمة إلى ثقافة الأمم الأخرى.

أ/ الرّحلة لغةً:

الرّحلة لغةً الترحيل والارتحال بمعنى الإشْخَاص والإزْعَاج. يقال رَحَلَ الرَجلُ إذا سَار[1] ،أي إنّ الرّحلة هي السّير والانتقال من مكان إلى مكان. والرُحلة بالضم الوجهُ الذي تريده، والرِحلة بالكسر هي الارتحال[2]، ورحل وارتحل بمعنى انتقل، ورحلة تعنى سفرة[3]، كلّ هذه المفردات تصب في معنى واحد هو الانتقال والضرب في الأرض، والسير في مناكبها.

ب/ الرّحلة اصطلاحاً:

هي فن من الفنون النثرية تتعلق بحياة الأفراد والأمم التي زارها الرّحالة، حيث تتناول بشيء من التفصيل مختلف نواحي حياتهم ومعيشتهم بأسلوب أدبي شائق يغرى القارئ بمواصلة القراءة من أول سطر إلى آخره من دون ملل أو كلل.

احتوى أدب الرّحلات على مادة وفيرة وغزيرة؛ تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وأدبية ودينية، كما تضمن الحكايات والأساطير :" قد لا تــرتقي إلى مستوى الفن القائم بذاتـــه كفن القصة،

[1] الأزهري، تهذيب اللغة، تح: عبد الله دردیش، مادة (ر،ح،ل)، مراجعة: محمد علي النجار، (د، ت)، ج5، ص5.

[2] إسماعيل بن حمّاد الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (ر،ح، ل)، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984، ج4، ص1707.

[3] رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980، ج5، ص109-110 .

أو الشعر، أو المسرحية، أو المقالة الأدبية مثلا، ففيه تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها من غير أن تضبطه معاييرها أو أن تخضع لمقاييسها "[1].

هذا التعدد في موضوعات أدب الرّحلة هو أحد أهم ركائزها وخصائصها الفنّية، وهذا ما يزيدها حلاوة، بحيث تجد قارئ الرّحلات لا يَمَلُّ من قراءتها، بل تجده متطلّعاً لمعرفة المزيد من الأخبار والحكايات عن الشعوب والبلدان.

ويؤكد بعض الدارسين انتساب " **أدب الرحلة** " إلى حقل السرد: " باعتباره كتابة أدبية تتوافر على مكونات سردية وآليات كتابية تسمح للتصنيف أن يأخذ مشروعيته في خانة الأدبي "[2]. ويُعدُّ السرد السمة البارزة في أدب الرّحلات، لأنّ الرّحالة بصدد الإخبار عما صادفه من أمور وأحداث في أثناء رحلته لأحد الأماكن، لذا يمكن عد النصّ الرّحلي نصّاً سردياً؛ لأنّ المشهد القصصي فيه مستمر من بداية الرّحلة إلى نهايتها، أي أنّ الرّحلة تجمع بين عنصر القص (الحكي)، والموضوعات المتعددة المتطرقة لجوانب مختلفة.

وهناك من يُعرف الرّحلة على أنّها:" ذلك اللون من التأليف الذي يجمع بين الدّافع الوجداني العميق والتأمل الدقيق في رصد المشاهدات والظواهر بأناة ودقة، والبحث عن الأسباب والنتائج ببصيرة واعية"[3].

الرّحلة تعبير صادق في أغلب الأحيان عمّا شاهده الرّحالة، ولهذا فكاتب الرّحلة يستقي المعلومات والحقائق من المشاهد الحيّة والتصوير المباشر، وهذا يتطلب منه بصيرة نافذة وواعية في إدراك الأشياء، وفهمها فهماً دقيقاً وعميقاً، ممّا يجعل قراءتها مفيدة وممتعة وشائقة.

---

[1] حسني محمود حسين، أدب الرّحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص9.

[2] شعيب الحليفي، الرحلة في الأدب العربي " التجنيس، آليات الكتابة، خطاب متخيل "، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص40.

[3] زردومي إسماعيل، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم (أطروحة دكتوراه دولة في الأدب القديم)، جامعة الحاج الأخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، باتنة، (رسالة الكترونية)، ص12.

وعُرّفت، أيضا، بأنّها" مادة حكائية قائمة على السفر والانتقال، تجري في زمن مسجل بدّقة، تحكي أحداثا وقعت في أمكنة متعددة، وفي زمن مضى"[1].

لقد أورد صاحب هذا القول بعض المقوّمات التعريفية التي تنقل الرّحلة من بعدها المادي الوثائقي إلى بعد كتابي تخييلي تُحدثه الكتابة بوصفها عملا تالٍ أو مواز للحدث الواقعي. فقوله مادة حكائية جرت في زمن مضى، وتسرد أحداثا وتبني أمكنة هو انتقال بمفهوم الرّحلة إلى مجال الأدب.

وأحيانا يطلق البعض أدب الرّحلة على الرّحلة بكل عناصرها التي تنظر إلى الكتابة باعتبارها جزءا منها أو وسيطا معرّفا بها، وأحيانا يقصدون بأدب الرّحلة تلك الكتابات التي يصف فيها الرّحالة البلدان وما يتصل بها " هذا وقد درج الكتاب العرب على استخدام عبارة أدب الرّحلات للإشارة إلى كتابات الرّحالة المسلمين وغيرهم التي يصفون فيها البلدان والأقوام، والتي يذكرون فيها أحداث تجوالهم ودوافع رحلاتهم"[2].

٢- أدب الرّحلة: تاريخها ونشأتها:

أ/ أدب الرّحلة قديماً:

عرف الإنسان الرّحلة منذ القِدم ومارسها، وإن اختلفت وسائل السفر ودوافعه؛ فقد جبل الإنسان عليها، مع هبوط آدم عليه السلام وحواء من السّماء إلى الأرض، ونزول كل منهما في مكان، وأخذا يجوبان الأرض لعلّهما يلتقيان مجدّدا، واستمرت رحلتهما حين أُمرا بالضرب في الأرض، والسعي وراء القوت ومنابع الماء، فكانت هذه أوّل رحلة على وجه الأرض[3]، ثمَّ تلتها رحلات أخرى.

[1] إسماعيل دردوحي، تقنيات السرد في رحلة فيض العباب وإفاضة قداح الآداب، يوليو، كلية العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع5، 2005، ص2.

[2] حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص15.

[3] ينظر: محمود شاكر، - التاريخ الإسلامي قبل البعثة والسيرة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط7، 1991، ج1، ص29.
- سامي بن عبد الله المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مكتبة العبيكان، الرياض، ط6، 2006، ص26.

يسلط الضوء أوّلاً على الرّحلات المقدّسة المرتبطة بالدّين الإسلامي[1] مثل رحلة سيّدنا إبراهيم،عليه السلام، وزوجته سارة إلى مصر، ورحلته أيضا مع زوجته الأخرى هاجر، وطفلهما إسماعيل إلى مكّة، ورحلات سّيدنا موسى، عليه السلام، إلى مصر، ورحلته مع الخضِر لطلب العلم، ورحلة سيّدنا عيسى، عليه السلام، وأمّه مريم البتول إلى مصر، ورحلة سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم من مكّة إلى المدينة المنوّرة؛ ويمكن تصنيف هذه الرّحلات ضمن الرّحلات البرّية. أمّا الرّحلات البحرية المقدّسة، فتتمثل في رحلة النّبي نوح، عليه السلام، وأتباعه من المسلمين في سفينة أنقذتهم من الطوفان، ورحلة النّبي يونس، عليه السلام، في السفينة وفي أعماق الحوت عندما ابتلعه.

وبمجيء الإسلام توسعت الرّحلات وانتشرت:" وهو قول يصدق على المسلمين أيام عزّهم أكثر مما يصدق على غيرهم. سبب ذلك: اتساعُ مملكتهم، وتطور أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، وشغفهم بالحل والترحال، وحبهم للمعرفة والاطلاع والمغامرة والاغتراب "[2].

ساعد الإسلام على ظهور فن الرّحلات، وذلك عن طريق الفتوحات الإسلامية، فظهرت كتابات متعددة في هذا المجال، قام بها الرّحالة العرب، وقد عكس أدب الرّحلات ثقافة تلك العصور.

ذُكرت الرّحلة في القرآن الكريم في عدّة آيات؛ منها قوله تعالى:﴿ **فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ [سورة آل عمران، الآية 137]؛ وقوله:﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ [سورة الأنعام، الآية 11؛ سورة النمل، الآية 69]؛ وقوله أيضاً: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾ [سورة الحج، الآية 46] ؛ وقد ذكر الله الرّحلة، أيضاً، في سورة قريش في قوله عزّ وجلّ: ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَيْفِ** ﴾ [سورة قريش، الآية (1 – 2)].

[1] عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 1992، ص67.

[2] بلقاسم بلعرج، بونة (عنابة)كما وصفها الرحالة العرب والغربيون، حوليات جامعة قالمة للعلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة 08 ماي 1945 قالمة، ع1، 2007، ص2.

كانت قريش مداومة على رحلة الشّتاء والصيف، إذا جاء الصيف رحلوا إلى الشام، وإذا جاء الشّتاء رحلوا إلى اليمن، فكانت لهم بذلك رحلتان: رحلة الشّتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام.

وذُكر في القرآن الكريم أيضاً الإسراء بالرّسول صلى الله عليه وسلّم إلى بيت المقدس، ومعراجه إلى السّماء مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى**﴾[سورة الإسراء، الآية 1]، وهي أطول رحلة في التّاريخ الإسلامي على الرُّغم من استغراقها فترة وجيزة جدّاً.

جاءت هذه الآيات في سياق الحديث عن السير والارتحال والتَفَكُّر في خلق الله من جبال وأشجار ومياه، وجَعْلِ هذه الرّحلات في مرضاة الله لا لمعصيته. وكلّ هذا يدل على أنّ الإسلام حثَّ معتنقيه، وشجعهم على الرّحلة لأغراض شتى.

ومنها الأبيات الشهيرة المنسوبة للإمام عليّ كرم الله وجهه:[1] (الطويل)

تَغَرَّبْ عَنِ الأَوْطَانِ فِي طَلَبِ العُلَى وَسَافِرْ فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ

تَفَرُّجُ هَمّ وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَآدَابٌ، وَصُحْبَةُ مَاجِدِ

فَإِنْ قِيلَ: فِي الأَسْفَارِ ذُلٌّ وَمِحْنَةٌ وَقَطْعُ الفَيَافِي وَارْتِكَابُ الشَّدَائِدِ

فَمَوْتُ الفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ مَقَامِهِ بِدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدِ

أمّا الرّحلات التي سجلها التاريخ العربي بعد الإسلام فأهمها:

رحلة التاجر سليمان السيرافي[2] بحراً إلى المحيط الهندي في القرن الثالث للهجرة، ورحلة سلام الترجمان[3] إلى حصون جبال القوقاز.

---

[1] ديوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تح :عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2005، ص59. وهذه الأبيات منسوبة أيضاً للإمام الشافعي رضي الله عنه؛ ينظر: ديوان الشافعي، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط 3، 2005، ص49.

[2] هي رحلة تجارية بحرية، اشتملت على مجموعة من المعارف والأخبار التي حصل عليها أثناء رحلته عبر المحيط الهندي. ينظر: أحمد أبو سعد، أدب الرّحلات، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط1، 1961، ص26.

[3] هي رحلة استطلاعية رسمية كلفه بها الخليفة العباسي الواثق بالله إلى حصون جبال القوقاز، وسبب الرّحلة أنّ الخليفة رأى في منامه أنّ السّد الذي بناه ذو القرنين بينهم وبين يأجوج ومأجوج قد انفتح. فقرر أن يبعث رجلا إلى المكان ليستطلع الأمر، فلم يجد من يصلح لهذه المهمة إلاّ سلام الترجمان. ينظر: أحمد أبو سعد، أدب الرّحلات، ص21.

وكذلك رحلة ابن حوقل[1] (المسالك والممالك)، ورحلة اليعقوبي[2](كتاب البلدان)، ورحلة المسعودي[3] (مروج الذهب)، ورحلة المقدسي[4] (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، ورحلة ياقوت الحموي[5] (معجم البلدان)، ورحلة الإدريسي[6](نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ورحلة القزويني[7] (آثار البلاد وأخبار العباد)، وغيرها من الرّحلات التي أُلّفت في هذا المجال.

كما عرفت الأمم الأجنبية الرّحلة منذ العصور القديمة؛ منها رحلة " هيرودوت " الذي يعدُّ أكبر رحالة عرفه الإغريق:" زار مصر وقبرص وفينيقيا وآشور وإيران وتوغل في الشمال إلى البوسفور، وأودع

[1] جاب هذا الرّحالة (في القرن الرابع للهجرة) مختلف أقطار الأرض لأجل الدرس والتجارة والكسب، ولم تكن زيارته زيارة عابر سبيل، بل كانت مناسبة للدرس والتأمل، فسجل ملاحظات تعد من أهم ما وصل في وصف البلدان. ينظر: شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، مصر، ط3، 1956، ص12.

[2] انساح اليعقوبي في البلدان الإسلامية، فوصل إلى أرمينية وفارس ومنهما انتقل إلى الهند، وطاف الجزيرة العربية، وبلاد الشام فالمغرب فالأندلس.ينظر: أحمد أبو سعد، أدب الرّحلات، ص43.

[3] من أشهر جغرافي العرب، قام برحلتين، الأولى في سنة 921 م ذهب فيها إلى مصر وفارس وإيران والهند وسرنديب ومدغشقر وعمان. وفي سنة 926 م قام المسعودي برحلته الثانية، فذهب إلى ما وراء أذربيجان وجرجان وإلى الشام وفلسطين. وفي سنة 942 م استقر في الفسطاط (مصر)، وفيها ألّف ودوّن ما شهده وسمعه أثناء رحلاته.ينظر: جورج غريب، أدب الرّحلة تاريخُه وأعلامُه " المسعُودي، ابن بطوطة، الرّيحاني "،دار الثقافة، بيروت، ط2، 1972، ص29.

[4] أعظم الجغرافيين عند العرب في نظر بعض المستشرقين، انتقل بين ربوع العالم الإسلامي، ثمَّ أخذ في تدوين كتابه " أحسن التقاسيم " مصوراً الأحوال الجغرافية والعمرانية، مهتما اهتماماً شديداً بالحديث عن اختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم....ينظر: شوقي ضيف، الرّحلات، ص15.

[5] قام أبو عبد الله برحلات لمصلحة سيده ولمصلحته في سبيل التجارة، فتنقل من حلب إلى إربل، فخراسان، فمرو، ثمّ خوارزم، حيث استقر إلى أن زحف جنكيز بمغوله، فانهزم إلى الموصل، ثمّ سار إلى سنجار فحلب وأقام فيها حتى مات. وقد أفادته رحلاته كثيراً، فألّف من مشاهداته في أثنائها، ومن مطالعاته في كتب الجغرافية معجمه الجغرافي " معجم البلدان ".ينظر: أحمد أبو سعد، أدب الرّحلات ، ص155.

[6] أكبر عالم جغرافي عرفته القرون الوسطى، رحل في البلاد، فتجوّل في شبه الجزيرة الاسبانية وشواطئ فرنسا وغربي البحر الأبيض والمغرب وآسيا الصغرى، وانتهى به المطاف إلى صقلية، حيث اتصل بالأمير النورماني روجر الثاني، فكلّفه هذا بمهمة عهد إليه فيها بتأليف كتاب له يصف فيه العالم بأقطاره وبلدانه، فقام الإدريسي بالمهمة على أكمل وجه، وألّف له الموسوعة الجغرافية الهائلة التي سمّاها " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ". ينظر: أحمد أبو سعد، أدب الرّحلات، ص95.

[7] يعدّ كتابه الجغرافي من أطرف الكتب الجغرافية عند العرب، وهو فيه لا يهتم بالمسالك، إنّما يهتم بأحوال البلاد والسكان، وقد قسم الكتاب إلى سبعة أقاليم، تكلم في كل إقليم عن بلاده مرتباً لها على حروف المعجم.ينظر: شوقي ضيف، الرّحلات، ص21.

مشاهداته في هذه الزيارات أو الرّحلات تاريخه الكبير"[1]. كما لمع في هذا العهد أيضاً " بطليموس الاسكندري " الذي:" ترك كتابين في الجغرافية والفلك ونراه يدوّن وصفا مفصلا للبلدان والأماكن في عصره ذاكرا أطوالها وعروضها، ومبينا بالرسم مواقعها "[2].

الرّحلة متصلة بتاريخ الإنسان منذ أقدم العصور، فمارسها الرّحالة في بلدانهم أو خارجها حسب الحاجة التي اقتضت ذلك. والرّحلة أنواع اختلفت باختلاف مقاصد أصحابها ودوافعهم:" فمنها ما هو سياسي؛ ومنها ما هو ديني؛ ومنها ما هو تجاري؛ ومنها ما هو تعليمي أو سياحي أو سفاري إلى غير ذلك من الأنواع التي تعددت وتنوعت بتعدد وتنوع الأغراض التي كانت تقصد من ورائها "[3].

وقد حفل التّاريخ بأسماء كثير من أعلام هذا الأدب ورُواده، الذين قاموا برحلات متعددة خارج ديارهم أو داخلها، وطافوا بأنحاء شتى من العالم.

ب– أدب الرّحلة عند المغاربة والأندلسيين:

يزخر التراث الإسلامي برصيد مجيد من أدب الرّحلة خَلَّفه رحالة علماء أفذاذ، دوّنوا فيه ما لم تدوّنه كتب التاريخ، وسجلوا في رحلاتهم تلك مشاهداتهم المختلفة، وصنفوا عادات وتقاليد الشّعوب، وتحدثوا عن طبائع النّاس، ووصفوا مسالك الأماكن والبلدان المتنوّعة، فصاغوا كلّ ذلك بأسلوب يجمع بين المتعة والتشويق، والحقيقة التاريخية والخيال.

جاب الرّحالة العرب البلدان العربية التي تجاورهم، وهناك من وصل إلى بلاد غير عربية وبعيدة كالهند والصين وتركيا وغيرها، فشكل أدب الرّحلات بذلك أهم تجليات الثقافة في ذلك العصر، وظهرت رحلات كثيرة على مرّ العصور.

ولكن اللاّفت للانتباه اشتهار الأندلسيّين والمغاربة بصفة خاصة بهذا الأدب، إذ حظّي عندهم بعناية فائقة تفوق عناية المشارقة به. وهذا راجع بطبيعة الحال إلى بعد المغرب عن الأماكن المقدّسة،

[1] شوقي ضيف، الرحلات، ص8.

[2] المرجع نفسه، ص9.

[3] أحمد بن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية – دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني–، دار الثقافة، دار البيضاء، المغرب، 1985، ص172.

ورغبتهم الملحة في زيارتها والشوق إليها:" فكان جل من يقصد البلاد الحجازية من الأدباء والعلماء لأداء فريضة الحج يشعر بوجوب اطلاع مواطنيه على أخبار تلك البقاع الشّريفة البعيدة التي يحن إليها كل مغربي، لما يربطه بها روابط الدين واللغة والدم"[1]. فوصفوا المسالك والطرق المؤدية إليها، ووقفوا على البلدان التي مرّوا بها في طريقهم، واصفين المساجد والزوايا والعلماء والأدباء، فازدهر بذلك هذا النّوع الأدبي، وأقبلوا عليه إقبالاً مفرطاً فنفقت سوقه، ولاسيما في القرنين السابع والثامن:" فالرحلة فن من فنون الأدب العربي، تخصص وبرع فيه الرحالة المسلمون وخاصة المغاربة والأندلسيين لكثرة دوافعهم في القيام بمثل هذه الرحلات"[2]. أنتج المغاربة والأندلسيون عديد الكتب في هذا المجال، وهذا طبعاّ بعد جولة طويلة، وغياب دام سنوات في اكتشاف المعمورة، وعندما استقر بهم المقام في بلدهم الأصلي أخذوا في كتابة ما شاهدوه، وما استفادوا منه من علوم وتجارب، لكي ينتفع بها أهل بلدهم.

ففن الرّحلة تأصل عندهم (المغاربة والأندلسيون)، وأصبح فناً قائماً بذاته، وبخاصة في عهد بني مرين، حيث ازدهر ازدهاراً لم يُر له مثيل من قبل، فألفوا مصنفات كثيرة، قدموا من خلالها منفعة جليلة لمن جاء بعدهم:" ازدهر أدب الرحلة على عهد بني مرين ازدهارا لم يسبق للمغرب أن عرفه في العصور التي مضت، فلم يذكر التاريخ، بل لم يسجل من هذه الرّحلات منذ بداية الإسلام في المغرب حتى العصر المريني، أي ما يقرب من سبعة قرون إلاّ عددا قليلا"[3]، لم يعرف المغرب قبل المرينيين أيّة نهضة جلّية في أدب الرّحلة، ولم يدوّن قبلهم سوى رحلة " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " للشريف الإدريسي[4] (562هـ)، ورحلة " تحفة الألباب " لأبي حامد الأندلسي[5] (565هـ)، وهي قليلة بالمقارنة بما أُنْتِجَ في العصر المريني.

---

[1] محمد الفاسي، الرّحالة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق، العدد2، السنة2، نوفمبر، 1958، ص8.

[2] عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، ص71.

[3] أحمد بن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية، ص172 .

[4] محمد بن محمد الشريف الإدريسي، من أعلام الجغرافيين المسلمين. ولد في سبتة سنة 493هـ، ودرس في جامعة قرطبة، ثمّ طاف في الأندلس وشمالي إفريقية وآسيا الصغرى. ينظر: زكي محمد حسن، الرّحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص64.

[5] محمد بن عبد الرحيم، المازنيُّ، القَيْسي، ولد سنة 473هـ، كان حافظاً عالماً أديباً، توفي بدمشق في صفر سنة 565هـ. ينظر: المقري التلمساني، نفح الطيب، ج2، ص235.

نبغت في سماء المغرب والأندلس أسماء عديدة من الذين تركوا بصماتهم المتميّزة من خلال رحلاتهم، فحفظهم التاريخ على مرّ الأزمان، وأصبحوا مثلا يقتدى بهم في هذا الفنّ المتميّز، حيث خرجوا من ديارهم تدفعهم رغبة جامحة للقيام بهذه المهمة، فانساحوا جوابين في الآفاق، راصدين مختلف المشاهدات، وعندما رجعوا إلى مواطنهم كانوا محملين بكمّ هائل من المعلومات، والفوائد عن ثقافات الشعوب فضلاً عن الإجازات والأسانيد التي تحصّلوا عليها من العلماء والفقهاء أثناء طلبهم للعلم. ولكي يحافظوا على ما استفادوا منه من مشاهد وعلوم من الضياع والنسيان كانت الكتابة والتدوين خير وسيلة لحفظها من التحريف.

كما ساعدت البيئة المغربية والأندلسية على ذلك، لما اشتهر عنها من ازدهار فكري وثقافي، وذلك بانتشار مراكز ثقافية كبرى في المغرب والأندلس، وكثرة العلماء، فازدهر الأدب في هذا العصر ازدهاراً ملحوظاً في جميع نواحيه، فبرزت فنون معينة، وانكب العلماء والأدباء والفقهاء على دراستها والنبوغ فيها.

واللاّفت للنظر دور السّلاطين الذين كانت لهم يد في الحفاظ على الموروث الثقافي، وذلك بتشجيعهم أهل العلم، والحرص على توفير كل الوسائل المتاحة لتنمية قدراتهم وتطويرها، فجلبوا حشداً هائلاً من العلماء الجهابذة إلى بلاطهم، وأنزلوهم منزلة رفيعة، ومنحوهم الأعطيات الوفيرة لإثارة التنافس، فأبدع هؤلاء الأدباء والعلماء درراً وجواهر بديعة في جوانب مختلفة أثرت المكتبة العربية الإسلامية.

كان أدب الرّحلة من أبرز تلك الفنون التي عرفها الأدب المغربي والأندلسي، ونقتصر في هذا المجال على ذكر أشهر الرّحالة وأبرَزِهم ممّن تركوا رحلات ذاع صيتها في الآفاق نظراً لما احتوته من فوائد جليلة عظيمة الأهمية، أمثال:

1/ ابن جُبير (614هـ)[1]: قام ابن جُبير برحلات ثلاث إلى المشرق. كانت الرحلة الأولى سنة 579هـ، خرج فيها من غرناطة إلى سبتة، ومنها ركب البحر إلى الإسكندرية، ومنها توجه إلى مكّة عن طريق

[1] هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير من قبيلة كتامة المضرية العدنانية أندلسي، شاطبي، بلنسي صاحب الرّحلة. ولد في بلنسية ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة للهجرة. سمع العلوم من أبيه بشاطبة، ومن أبي عبد الله الأصيلي، وأبي الحسن بن أبي العيش.

عيذاب فجدة، فحج وزار المدينة والكوفة وبغداد والموصل وحلب ودمشق، ثمّ ركب البحر إلى صقلية عائدا إلى غرناطة سنة 581هـ.

وقد استغرقت رحلته سنتين سجل فيها مشاهداته وملاحظاته بعين فاحصة في يومياته المعروفة برحلة ابن جُبير، ثمّ أتبع هذه الرّحلة برحلة ثانية وثالثة.

أمّا الرحلة الثانية فقد دفعه إليها أنباء استرداد بيت المقدس من الصليبين من قبل صلاح الدين الأيوبي سنة 583هـ، فشرع في هذه الرحلة سنة 585هـ وانتهى منها سنة 586هـ.

أمّا الرّحلة الثالثة فكانت إثر وفاة زوجته التي كان يحبّها حبّا شديدا، فدفعه الحزن عليها إلى القيام برحلة ثالثة يروّح بها عما ألم به من حزن على فراقها، فخرج من سبتة إلى مكّة وبقي فيها فترة من الزمن ثمّ غادرها إلى بيت المقدس والقاهرة والإسكندرية حيث توفي فيها سنة 614هـ. ولم يترك لنا ابن جُبير إلا حديثه عن رحلته الأولى.

تُعدُّ هذه الرّحلة من أهم مؤلفات العرب في الرّحلات؛ فقد تفقد فيها الآثار والمساجد والدواوين ودرس أحوالها، وذكر ما شاهده وما كابده في أسفاره، ووصف حال مصر في عهد صلاح الدين ومدحه لإبطاله المكس (الضريبة) المترتبة على الحجاج، ووصف المسجد الأقصى والجامع الأموي بدمشق والساعة العجيبة التي كانت فيه، وهي من صنع رضوان ابن الساعاتي، وانتقد كثيرا من الأحوال، ومن أهم مشاهداته ما تحدّث به عن صقلية وآثارها من مساجد ومدارس وقصور، ومن الحضارة التي خلّفها العرب في الجزيرة.

عُني بالأدب فبلغ الغاية فيه، وتقدم في صناعة الشعر والكتابة، وله في علم الحساب والعلوم اللغوية، وأظهر مواهب أخرى رشحته للعمل كاتبا. ترجمته في: – المقرّي التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج3، ص 142.

– لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص231.

2/ العبدري (700هـ)[1]: يُعدُّ محمّد العبدري الحاحي من أهمّ الرّحالة المغاربة في القرن السابع الهجري، وهو معاصر لابن رُشيد السبتي والتُجيبي السبتي، وقد دوّن العبدري مشاهداته في رحلة جليلة الفوائد، عظيمة القدر هي "رحلة العبدري" أو "الرحلة المغربية".

اهتم العبدري في رحلته بالناحية العلمية للبلدان التي مرّ بها، وترجم لعدد من الشيوخ الذين لقيّهم، ودوّن ما أخذ عن كلّ واحد منهم، من فقه وحديث وأدب وغير ذلك، ممّا جعل الرّحلة أقرب ما تكون إلى فهرسة لشيوخه، ولم يغفل العبدري الجوانب العمرانية في البلدان التي مرّ بها، ولا النواحي الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والتاريخية. ممّا يزيد من قيمة الرّحلة ويجعلها مصدرا مهمّا للدارسين.

3/ ابن رُشَيْد السّبتي[2] **(721هـ)**: رحل إلى المشرق سنة (683هـ) لينهل من معين العلم هناك، وليصل إلى السند الأعلى الصحيح في الحديث النّبوي الشّريف:" كان له تَحَقُّق بعلوم الحديث وبرجاله، وبضبط أسانيده ومعرفة انقطاعه واتصاله، إماما في هذا الشأن مشارا إليه في هذا الفن "[3]، ترك رحلة جليلة الفوائد من الناحية الأدبية ومن نواح أخر، بخاصة الحديث النّبوي الشّريف، سمّاها: " ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة ".

---

[1] هو محمد بن محمد علي بن أحمد بن سعود، ينتهي نسبه إلى عبد الدار بن قصي بن كلاب، وإليهم نسبة العبدري، وقد ولد على أقرب تقدير سنة 643هـ. واختلفت الآراء في أصله، فهناك من عدّه أندلسيا هاجر من الأندلس فرارا من الحروب والفتن، واستقر في حاحة بالمغرب، وبعضهم الآخر يرى أنّ أسرة العبدري كانت تقطن بلنسية بالأندلس ثمّ هاجرت إلى المغرب.

ترجمته في: – محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص 217.

– عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي،ج6، ص401.

– خير الدين الزركلي، الأعلام، ج7، ص31، 32.

[2] هو محمد بن محمد بن رُشيد أبو عبد الله الفهري السبتي، ولد بمدينة سبتة بالمغرب الأقصى سنة 657هـ، تلقى دراسته الأولى ببلده على مجموعة من الشيوخ، ثمّ انتقل إلى مدينة فاس التي كانت مركزاً علمياً مرموقاً، والتزم مجالس الشيوخ فيها، ولما اكتمل أخذه عن أشياخ منطقته تاقت نفسه إلى الارتحال شرقاً لينهل من علمائه. ترجمته في: – ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دار الجيل، بيروت، 1993، ج4، ص111–112.

– عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ج6، ص382.

– عبد الله كنون، النبوغ المغربي، طنجة، ط2، 1960، ج1، ص206.

[3] شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939، ج1، ص348.

4/الرّحالة أبو القاسم التُجَيْبي السّبتي[1] **(730هـ)**: خرج في رحلته للحجّ منطلقاً من سبتة حوالي سنة (695هـ)، مرّ بمراكز الثقافة الإسلامية المعروفة لعهده، فلقي بها العلماء وروى عنهم، وكتب رحلته الموسومة بـ:" مستفاد الرحلة والاغتراب ".

5/الرّحالة أحمد التّجاني التونسي[2]**(721هـ)**: خرج في رحلة رفقة أحد الأمراء الحفصيين (أبـــو يحيى زكرياء بن أحمد اللحياني)[3] سنة (708هـ)، فدوّن مشاهداته في كتاب أسماه " رحلة التجاني، التي يمكن اعتبارها إحدى أهم مصادر تاريخ إفريقية[4]، سياسياً واجتماعياً وأدبياً.

---

[1] هو القاسم بن يوسف بن محمد بن عليّ التجيبي البلنسي السبتي، ولد حوالي سنة 670هـ. قرأ القرآن بقراءته المشهورة وغيرها، ودرس أهم الكتب في هذا الفن، كاكافي لابن شريح .

ينظر ترجمته في: مقدمة: القاسم التجيبي السّبتي،" برنامج التُجيبي "، بقلم: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981، ص: ح، ط .

[2] هو عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني التونسي، ولد سنة 670 هـ، رحالة أديب من أعيان الكتاب، ولد ونشأ بتونس، وعمل بديوان الإنشاء في البلاط الحفصي، كان كاتب الأمير الحفصي زكرياء بن أحمد اللحياني، صحبه في رحلة قام بها، وفارقه في مدينة طرابلس، وعاد إلى تونس، وكانت غيبته عامين وثمانية أشهر وأياما، دوّن مشاهداته في كتابه " رحلة التجاني " .

ترجمته في : – خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، ج4، ص125.

– عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج6، ص376.

[3] سافر شيخ الموحدين أبو يحي زكرياءبن أحمد اللحياني بالعساكر إلى جربة لتخليصها من أيدي النصارى، فحارب القشتاليين شهرين ثمّ رحل عنها إلى قابس ثمّ إلى بلاد الجريد، وانتهى إلى توزر فنزلها، وخلص مجابي الجريد، ورجع إلى قابس وأنزله عبد الملك بن عثمان بن مكي بداره، ولما استقر بفاس صرح بما كان في قصده من أمر الحجّ، وصرف العساكر إلى الحضرة .

– أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضود، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966، ص56.

– أبو العباس أحمد بن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدّولة الحفصية، تقديم: محمد الشاذلي النيفر، تح: عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص159.

[4] هو اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية، وينتهى آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس، والجزيرتان في شماليها، فصقلية منحرفة إلى الشرق والأندلس منحرفة غربا جهة الغرب. وحدُّ إفريقية من طرابلس من جهة برقة والإسكندرية إلى بجاية، وقيل إلى مِلْيانة. ينظر:

– ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، 288/1.

6/الرّحالة لسان الدّين بن الخطيب[1](776هـ): قام برحلتين الأولى في الأندلس حين رافق السُّلطان أبا الحجاج يوسف في زيارته إلى مقاطعات غرناطة[2] الشرقية عام (748هـ) عنونها بـ" خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف "[3]، والثانية في المغرب حين ذهب إليها لاجِئاً عندما نُفِيَ مع سلطانه المخلوع محمّد بن محمّد يوسف الغني بالله[4] عام (760هـ).

لم يبق ابن الخطيب في فاس[5] عاصمة بني مرين[6] إلاّ قليلا ثمَّ تنقل في أرجاء البلاد المغربية، ووقف مطوّلا

---

[1] هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، وزير ملوك بني الأحمر في غرناطة، شخصية موسوعية، فهو مؤرخ، وطبيب، وكاتب مترسل، وشاعر فحل، من كبار العلماء الذين أنجبتهم الحضارة العربية الإسلامية.

ترجمته في: – المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ج5، ص7.

– عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج7، ص440.

– عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج6، ص503.

[2] غَرْنَاطة: أقدَمُ مُدُن كورة ألبيرة من أعمال الأندلس، وأعظمها وأحسنها وأحصنها، يشقّها النهر المعروف بنهر قلزم في القديم، ويعرف الآن بنهر حدارُه، وبينها وبين ألبيرة أربعة فراسخ، وبينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثين فرسخاً. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص195.

[3] هي رحلة إلى الأندلس مع السلطان يوسف ابن الحجاج إلى وادي آش وبسيطة وقالش، وبرشانة، والمرية، ومرشانة، ولورسانة. ينظر: محمد محمود الخزعلي، " لسان الدين بن الخطيب وأدب الرحلة "، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج18، ع39، ذو الحجة 1427هـ، ص413.

[4] ذكر لسان الدين بن الخطيب في كتابه " اللمحة البدرية في الدولة النصرية " ما يتعلق بخلع سلطانه الغني، ولجوئهما للمغرب وقيام أخيه عليه. ينظر: – المقري، نفح الطيب، ج5، ص84.

[5] مدينة مشهورة كبيرة على برّ المغرب من بلاد المغرب، وهي حاضرة البحر وأجلّ مُدنُه قبل أن تُختطّ مرّاكُش، وفاس مختطّة بين ثنيّتين عظيمتين وقد تصاعدت العمارة في جنبيها على الجبل حتى بلغت مستواها من رأسه، وقد تفجّرت كلها عيوناً تسيل إلى قرارة واديها إلى نهر متوسط. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص230.

[6] بنو مرين فخذ من زناتة، وهم ولد مرين بن ورتاجين بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر بن يجنت بن يصليتن...قامت دولة بني مرين في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن السابع للهجرة، وظلت حتى سقوطها سنة (869هـ). كانت زعامتهم في أول أمرهم لعبد الحق بن محيو، فلما توفي توارثها أبناؤه الأربع من بعده، وكان أشهرهم يعقوب بن عبد الحق الذي كان أحد رجالات بني مرين المشهورين، وأوّل من تلقب بأمير المسلمين، وفي عهده بُنِيت فاس الجديد 674هـ وكانت عاصمة بني مرين.

ظهر بين ملوك بني مرين يوسف بن يعقوب باني مدينة المنصورة قرب تلمسان، والسُّلطان أبو الحسن المريني (752هـ)، وابنه أبو عنان الذي كان أحد بناة الحضارة المرينية التي ما تزال آثارها واضحة في المدرسة البوعنانية، وساعتها المائية وعدّة مدارس للطلاب في فاس ومكناس وشالة، وسلا. ينظر:

– علي ابن أبي زرع الفاسيّ، الذخيرة السينية في تاريخ الدولة المرينية، (د، ت)، ص14.

عند جبل هنتاتة الذي ينسب إلى قبيلة هنتاتة التي تسكن هناك، أطلق على رحلته اسم:" نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ".

7/الرّحالة إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النُمَيْرِي[1]: من أهل غرناطة يكنى أبا إسحاق، ويُعرف بابن الحاج (768هـ)، وصف رحلة أبي عنان المريني إلى تونس عام (758هـ)، وسمّاها:"فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ".تطرق فيها بتفصيل دقيق إلى الموكب المريني وجنده، وما يتعلق بالرّحلة.

8/الرّحالة أبو البقاء البلوي[2] **(768هـ)**: قاض من فضلاء الأندلسيين، حجّ وصنف رحلتـــه:" تـــاج المفرق في تحلية علماء المشرق "، أنجزها في شهر ربيع الأوّل سنة (767هـ).

9/الرّحالة عبد الرحمن ابن خلدون[3]**(808هـ)**: أصله من إشبيلية، ومولده بتونس، رحل إلى تلمسان[4]

---

[1] أديب أندلسي، من كبار الكتاب، ولد بغرناطة سنة 713هـ، رحل إلى المشرق فحجّ، لقي عديد من كبار علماء الحديث وأخذ عنهم.

ترجمته في : – المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2، ص534.

– لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص342 .

[2] هو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي، أبو البقاء، تلقى علومه على أبيه، وعلى شيوخه المغاربة والأندلسيين.

ترجمته في : – المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2، ص532.

– خير الدين الزركلي، الأعلام، ج2، ص297.

[3] هو محمد بن محمد ابن خلدون أبو زيد وليّ الدّين الحضرمي الإشبيلي، ينسب سلفهم إلى وائل ابن حجر، انتقل سلفه عن مدينة إشبيلية إلى تونس، كان حسن الخلق رفيع القدر ظاهر الحياء وقور المجلس عالي الهمة عزوفاً عن الضيم، صعب المقادة قوي الجأش طامح الرأس للرياسة، متقدماً في فنون عقلية ونقلية شديد البحث كثير الحفظ صحيح التصور بارع الخط جواد، شخصية موسوعية، كان مؤرخاً وفقيهاً، وفيلسوفاً، وأديباً مشهوراً، مؤسس علم الاجتماع.

دخل مدينة فاس عام 755هـ، واستعمله السُّلطان أبي عنان فارس بن عليّ بن عثمان المريني في الكتابة سنة 756هـ، ثمَّ انصرف إلى غرناطة، ودخلها عام 764هـ. توفي بالقاهرة سنة 808هـ.

ترجمته في: – أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الإقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص410.

- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج3، ص330.
- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج6، ص586.

[4] تِلِمْسان: بالمغرب وهما مدينتان متجاورتان مسوّرتان، بينهما رَمِيَةُ حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثه، والحديثه اختطّها الملّثمون ملوك المغرب. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص44.

وفاس وغرناطة وبجاية[1] ثمّ استقر في تلمسان، فأقام بها مع عائلته، ونزل في قلعة بني سلامة من بلاد بني توجين فأقام بها أربع سنوات، في هذه الفترة شرع في كتابة مؤلفه الضخم " التاريخ " فأكمل المقدّمة، ودوّن بعض الفصول من التاريخ، ثمّ عاد إلى تونس[2] مسقط رأسه ومكث فيها أربع سنوات، ومنها اتجه إلى مصر، وجلس للتدريس في الأزهر، اشتهر بكتابه "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر "في سبعة مجلدات أوّلها المقدّمة وآخرها الرّحلة التي عنونها بـ: "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا "[3]، ذكر فيها نسبته وسيرته، وما اتصل به من أحداث زمنه.

10/ ابن بطّوطة (703هـ – 770هـ): هو محمّـد بن عبد الله بن محمّـد بن إبراهيـم بن يوسـف (بن عبد الرحمن)[4] اللواتي[5] الطنجي[6] المعروف بابن بطّوطة، والمعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين[7].

---

[1] مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرِب. ينظر: معجم البلدان، ج1، ص339.

[2] تُونس: مدينة كبيرة محدثة بإفريقية على ساحل بحر الروم، عمَّرت من أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها يقال لها قَرطاجِنّة. ينظر: معجم البلدان، ج2، ص60.

[3] عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا)، عارضها: محمّد بن تاويت الطّنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص4.

[4] ترجمته في: – لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص273.

– خير الدين الزركلي، الأعلام، ج6، ص235– 236.

[5] لواتة: من العرب الداخلين مع البربر إلى المغرب، لهم زقاق بفاس يقال له حارة لواتة (لواتة قبيلة من البربر: وهو بطن عظيم متسع من بطون البربر البتر ينتسبون إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك، ولوا الأصغر هو نفزا. ولوا اسم أبيهم، والبربر إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والتاء فصار لوات، فلما عرّبته العرب حملوه على الإفراد وألحقوا به هاء الجمع)، منهم الفقيه الحسن اللواتي، كان على عهد مغراوة، ومنهم الفقيه عليّ بن الحسين اللواتي كان على عهد لمتونة، ومنهم الوليّ الصالح عليّ اللواتي كان على عهد الموحدين. ينظر: – عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمّى " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر "، ج6، ص152.

[6] نسبة إلى طنجة مسقط رأسه، وطنجة مدينة بالمغرب قديمة على ساحل البحر، فيها آثار كثيرة للأول وقصور وأقباء...وطنجة آخر حدود إفريقية من المغرب. ينظر: محمد بن عبد المنعم الحِمْيَري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1975، ص396 -397.

[7] ينظر: مقدمة كتاب رحلة ابن بطوطة، عبد الهادي التازي، في رحلة ابن بطوطة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، تح: عبد الهادي التازي، الرباط، 1997، ج1، ص80.

ولد بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب 703هـ بالمغرب الأقصى، وينسب ابن بطّوطة لأسرة عُنيت بالعلوم الشرعية، وعُرفت بالبسطة في العيش، اشتغل بعض أفرادها في القضاء الشرعي؛ وهو ما ذكره لأحد الملوك الذين التقاهم عندما خيّره بين الوظائف، فقال:" أمّا الوزارة والكتابة فليست شغلي، وأمّا القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي "[1].

حفظ في طنجة القرآن، ودرس العلوم الدينية والأدب، فشب ورعاً تقياً محبّاً للعلماء والأولياء، ولكن يبدو أنّه لم يتمّ دراسته لأنّه لما بلغ الثانية والعشرين من عمره ألحت عليه الرغبة في مغادرة بلاده، ومفارقة أهله استجابة لنداء الفريضة المقدّسة التي كان عليه أن يؤديها. فخرج من طنجة سنة 725هـ قاصدا مكّة المكرّمة، وزيارة مسجد الرّسول صلى الله عليه وسلّم؛ وهذا ما أكده قوله:" كان خروجي من طنجة مسقط رأسي، يوم الخميس الثاني من شهر الله، رجب الفرد، عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام"[2]. بالإضافة إلى رغبته في رؤية أحوال النّاس في الأقطار المختلفة، وشوقه إلى المعرفة، وولعه بالتنقل والمغامرة والتجربة، ومعرفة أحوال الدّنيا من حوله.

رحل ابن بطّوطة ثلاث رحلات: أولاهن وهي أطولهن بدأها في يوم الخميس الثاني من رجب سنة 725هـ، وانتهى منها يوم الجمعة أواخر شعبان سنة 750هـ .

وفي هذه الرّحلة طاف بأنحاء المغرب الأقصى، ثمّ اتجه نحو الشرق عَبَرَ تلمسان أو المغرب الأوسط، إلى تونس وليبيا، وانتهى به المطاف في مصر، ومنها اتجه إلى الإسكندرية ثمّ القاهرة، وتابع رحلته إلى مكّة المكرّمة عن طريق بلاد الشام، وذلك سنة 726هـ، فأدى مناسك الحجّ، ومن مكّة رحل إلى العراق وإيران وبلاد الأناضول، ثمّ عاد إلى الحجاز سنة 727هـ، وحجّ للمرة الثانية، وجاور في مكّة ثلاث سنوات، وفي عام 730هـ غادر الحجاز إلى اليمن وبلاد الخليج العربي، ثمّ سار في الخليج العربي متجها إلى البحرين والأحساء، ومن هناك عاد إلى الحجاز سنة 732هـ، ومن ثمّ قصد مصر ومنها إلى سورية،

[1] رحلة ابن بطوطة، ج3، ص233.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص153 .

ثمّ غادرها متجها نحو فلسطين، ثمّ قصد شبه جزيرة القرم[1]، وبلاد الأوزبك، ومن هناك رافق إحدى الملكات إلى القسطنطينية.

وبعدها عاد إلى القرم كي ينطلق منها إلى بخارى[2] وبلاد الأفغان، إلى أن وصل إلى دلهي على نهر الغانج فاستقر بها مدّة عامين، عمل خلالهما قاضيا للمذهب المالكي.

ولما أراد السُّلطان محمّد شاه (ملك الهند) أن يرسل وفداً إلى ملك الصين خرج ابن بطّوطة فيه، ولكنّه لم يتجاوز جزائر ذيبة المهَل[3] (جزر مالديف)، حيث استقر فيها مدّة سنة ونصف، تولّى فيها من جديد منصب القضاء. ثمّ شعر برغبة شديدة في زيارة الصين، فقصدها بعد أن مرّ بساحل البنغال وشبه جزيرة الملايو. وانكفأ بعدها راجعاً من رحلته الأولى عن طريق سومطرة، فالهند، فاليمن، فبلاد العجم، فالعراق، فالشام، فمصر إلى أن وصل مكّة في 22 شعبان سنة 749هـ، فأقام بها إلى موسم الحجّ، وهي المرة السادسة التي يحجّ فيها، ثمّ سافر إلى المدينة المنوّرة، ومنها إلى القدس، ثمّ إلى مصر وانتهى عائداً إلى المغرب بعد أن غاب عنه خمساً وعشرين سنة، فدخل فاساً في أواخر شعبان سنة 750هـ.

وبعد أن أقام فيها مدّة عام، عاوده الشوق والحنين إلى الارتحال، فبدأ رحلته الثانية في مملكة غرناطة بالأندلس سنة 751هـ، وقد خرج ابن بطّوطة في هذه الرّحلة من بلده طنجة، فمرّ بسبتة وجبل طارق، ثمّ رحل إلى فاس ليهيئ نفسه لرحلة ثالثة إلى بلاد السودان سنة 753هـ، فزار بعض مدنها، ومنها عاد إلى المغرب.

ولما استقـــر به المقام هناك أخذ في رواية ما شاهده من عجائب المشاهـــدات وغرائـــب الأخبار،

---

[1] تكون القرم نقطة الإتصال الأساس بين جنوب روسيا المعروف أنذاك باسم قفجق وبين مدينة صنوب التي قضى فيها ابن بطّوطة أربعين يوما، والتي كانت المينا الأساس لروسيا الصغرى على ضفاف البحر الأسود. ينظر: رحلة ابن بطوطة (الحاشية)، 215/2.

[2] بُخارى: من أعظم مُدُن ما وراء النهر وأجلّها، يُعبَر إليها من آمُل اللشّطّ، وما بينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص353.

[3] جزائر جنوب شرق الهند تعرف في الكتب الأوروبيّة المعاصرة لنا باسم مالديف، وتسمّى اليوم رسميّا محلديب. ينظر: عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج6، ص522.

فأُعجب السُّلطان المريني أبو عنان (729هـ – 759هـ)[1] بقصصه الشائقة، فطلب منه أن يمليها على كاتِبِهِ محمّد بن جُزَيْ الكلبي.

أملى ابن بطّوطة رحلته على كاتب السُّلطان ابن جُزي من ذاكرته بحجة ضياع مذكراته، التي سجّل فيها مشاهداته، وملاحظاته لأن الكفار سرقوها منه. فكانت هذه الرّحلة هي الكتاب الوحيد الذي خَلَّفَهُ بعد غيبته الطويلة، حيث لم تذكر المصادر مؤلفات أخرى أنتجها الرّحالة، وهذا يدل على أنّه كان من هواة الرّحلة، محبّ للاطلاع على ثقافات الغير، والانتقال من مكان إلى آخر لمعرفة أحوال الناس، ومزاولة مهنته التي هي القضاء أمّا الكتابة فليست شغله كما قال (ليست لديه الرّغبة في الكتابة)، ورُبما لهذا السبب لم يترك كتباً أخرى، حتى إنّ رحلته ما كان ليكتبها لولا تدخل السُّلطان أبي عنان المريني، الذي يعدُّ صاحب الفضل الأكبر في خروج هذه الرّحلة إلى النور، واستمتاع الأجيال بقراءتها جيلاً بعد جيل.

هكذا أمضى ابن بطّوطة حوالي تسع وعشرين سنة من الترحال بين المدن والبلدان، من أجل معرفة عادات الشعوب والأقوام، ولهذا فهو شيخ الرّحالين، بلا منازع، لكثرة طوافه في الآفاق، فهو من المغامرين الذين دفعهم حبّ الاستطلاع إلى ركوب كثير من الأخطار والأهوال.

---

[1] فارس بن عليّ بن عثمان بن يعقوب المريني، أبو عنان، المتوكل على الله من ملوك الدولة المرينية بالمغرب، ولد بفاس الجديدة (الدار البيضاء) في الثاني عشر ربيع الأول عام 729هـ. بويع بتلمسان في حياة أبيه لأنّه غدر أباه في الملك لما غزا إفريقية شهر ربيع الأول عام 749هـ، وكانت دولته تسعة أعوام وتسعة أشهر.

كان فارساً شجاعا يقوم في الحرب مقام جنده، وكان فقيهاً يناظر فيه (الفقه)، وكان عارفا بالمنطق وأصول الدين، وله حظ صالح في العربية والحساب، وكان حافظا للقرآن عارفاً بناسخه ومنسوخه حافظاً للحديث عارفا برجاله، فصيح القلم كاتبا بليغا حسن التوقيع.

توفي مقتولا، خنقه وزيره الحسن بن عمر الفودودي يوم السبت الثامن والعشرين لذي الحجة عام 759هـ، وله ثلاثون سنة. ترجمته في:

– مؤلف مجهول، الحلل الموشية، تح: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979، ص179.

– أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ص508-510.

– خير الدين الزركلي، الأعلام، ج5، ص127.

توفي بمراكش عام 770هـ، وتُلقبه جمعية كمبردج في كتبها وأطالسها بأمير الرّحالين المسلمين[1] لأنّه كان نموذجاً متميزاً للرّحالة المسلمين، وعلى يده استوت الرّحلة ونضجت، وأصبحت فناً قائماً بذاته.

وصفوة القول تتجلى في أنّ الإنسان عرف الرّحلة منذ عصور قديمة، ومارسها العرب منذ الجاهلية كفعل طبيعي، أُنجز لظروف وأسباب معيشية مختلفة، ثمّ اهتموا بها وأكثروا من التأليف فيها، فتنوعت أسبابها ومقاصدها العلمية والدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

[1] الأعلام، خير الدين الزركلي، ج6، ص236.

2/ الرّحلة في الأدب الجزائري:

احتلت الرّحلة الأدبية حيّزا معتبرا في التراث العربي الإسلامي على غير النشاطات الأدبية الأخرى؛ فقد تميّزت الحضارة العربية الإسلامية بهذا النوع من الرّحلات الأدبية التي أضفت على رصيدها الحضاري نوعا جديدا من الخيال الإبداعي الممتع الذي يتمازج فيه الواقعي والسحري في تناغم.

ولما كان المغرب العربي بعيدا عن مراكز القرار والأماكن المقدسة أوجب على سكانه ربط علاقات الصلة بتلك البقاع، ضف إلى ذلك رغبة المغاربة الملحة في معرفة كل جديد الحضارة المركزية، وبخاصة مراكزها الرئيسة كمكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، وبعدهم عن مراكز الحث العلمي كدمشق وبغداد والقاهرة، من أجل التحصيل العلمي وملازمة شيوخ العلم الكبار، كل هذا أوجب عليهم التنقل والارتحال، فنتج عن كل ذلك شكل من أشكال الأدب الخلاق، عُرف فيما بعد باسم " أدب الرّحلات "أي" ذلك النثر الأدبي الذي يتخذ من الرّحلة موضوعا، أو بمعنى آخر الرّحلة عندما تكتب في شكل أدبي نثري مميز، وفي لغة خاصة، ومن خلال تصور بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة"[1].

وفي هذا المجال صار للمغرب العربي نصيب وافر؛ إذ نجد المغاربة يضربون فيه بقسط وافر إن لم يكن لهم قصب السبق فيه.

وفي خضم هذا الهوس الإبداعي شكلت الجزائر إحدى المحطات البارزة والمهمة في أدب الرّحلات، أسهمت بشكل كبير في هذا النوع من الإنجاز الأدبي الرفيع المتميز بالمغامرة والمجازفة والمعروف بأدب الرحلات، وكانت بعض رحلات الجزائريين تلبية لنداء الحج وبعضها نتيجة لطلب العلم، وبذلك أسهموا" مساهمة واضحة في كتابة رحلات ولاسيما خلال القرن 18م (12هـ)"[2].

ومن هنا يمكن القول بأنّ الجزائريين لم يحفلوا كثيرا بالرّحلات خلال العهد السابق للعثمانيين؛ وقد أخبر المقّري في كتابه نفح الطيب بأنّ جدّه محمّد بن محمّد أبا عبد الله المقّري التلمساني قد ألف رحلة مشرقية سمّاها "رحلة المتبتّل "، وهي رحلة علمية دينية قصد منها طلب العلم والقيام بالحج[3].

---

[1] سيد حامد النساج، رحلة التراث العربي، ص203.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص395.

[3] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص180.

وقد زار خلالها حواضر العلم المشهورة كالقاهرة ودمشق ومكّة، وفي النفح أخبار كثيرة عن رحلة محمد المقّري الجد، وعن العلماء والأعلام الملاقين له، مع تراجم لهم وسرد لأهم مؤلفاتهم[1].

وتذكر المصادر أنّ هناك رحلة لابن قنفذ القسنطيني الشهير بابن الخطيب، والتي تُعدّ اختصارا لرحلة العبدري المعروفة بالرّحلة المغربية، وقد أشار أحد الباحثين إلى أنّ رحلة ابن قنفذ تحمل عنوان "المسافة السنية في الرحلة العبدرية"، وقيل "المسافة السنية في اختصار الرحلة العبدرية"[2].

وهي مفقودة إلا أنّنا عثرنا على رحلة أخرى لابن قنفذ موسومة بـ" أنس الفقير وعزّ الحقير " التي يذكر فيها أنّه ارتحل إلى تلمسان وأخذ عن شيوخها التفسير والحديث والنحو والأدب، وأنّه أقام بالمغرب ثمانية عشر عاما (759هـ- 776هـ)، طاف فيها ربوع المغرب ولقي عددا من المتصوفة وزار أضرحة الصالحين.

ويعدّ محمد بن عبد الكريم المغيلي رائدا لفن الرّحلة بإقليم توات، حيث ارتحل إلى الحجّ منطلقا من بلاد التكرور[3]، والتقى في طريقه بجلال الدين السيوطي وأجرى معه مناظرات في المنطق والحديث.

وممّا سلفت الإشارة إليه يتضح لنا أنّ الرّحلات الجزائرية التي برزت في الفترة التي سبقت العثمانيين كانت محدودة جدّا، ولكن على الرّغم من ذلك لا يمكن تجاهلها.

وأمّا إذا انتقلنا إلى الحديث عن الرّحلات التي ظهرت خلال العهد العثماني فإنّنا نجدها متنوّعة بتنوّع الأهداف والمقاصد "عندما زاد على الرّحلة الإقبال تنوّعت الأغراض وتعدّدت الموضوعات وتطوّر هذا الفن كما وكيفا، وأصبح من الأهمية بمكان بحيث لا تكتمل ثقافة الإنسان بدونه، كما أصبح من المصادر التاريخية"[4].

---

[1] المقّري التلمساني، نفح الطيب، ص223.

[2] بشير ضيف، فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، منشورات ثالة، الجزائر، (د، ط)، 2007، ص319.

[3] التكرور: مدينة تقع شمال مالي.

[4] مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص10.

نستشف من خلال هذا الكلام أنّ الرّحلات الجزائرية التي ظهرت في هاته الفترة كانت وثائق تاريخية مهمّة في ظل الغياب الصارخ للمدوّنات التي تخص تاريخ الجزائر في هذه الفترة على وجه الخصوص، والتي دامت أكثر من ثلاثة قرون.

ومن هذا المنطلق يمكن لنا أن نميّز بين نوعين من الرّحلات تعرف الأولى منها بالرّحلات الحجازية وهي تلك التي يُقصد منها أداء مناسك الحجّ، والثانية بالرّحلات العلمية وهي تلك التي يهدف أصحابها إلى طلب العلم والاتصال بالعلماء.

وتشير المصادر إلى أنّ من أبرز الرّحلات العلمية رحلة عاشور بن موسى القسنطيني المعروف بالفكيرين الذي ارتحل إلى عدّة بلدان لطلب العلم كالمغرب الأقصى وتونس. الأمر الذي مكّنه من معرفة طبائع الشعوب وعاداتها وتقاليدها، وقد اختلف المؤرخون في مسألة تدوين هذه الرّحلة الأمر الذي جعل واحدا منهم يتساءل عن مصيرها حيث يقول:" فإنّنا لا نعرف أنّ عاشور قد ترك رحلة مكتوبة، فهل كتب رحلته أو اكتفى بقصها شفويا على تلاميذه؟ ذلك ما لا نعلمه أيضا، فإذا كان قد كتبها فهي لم تصل إلينا، وإذا لم يكتبها فالغالب أنّها قد أمليت على بعض التلاميذ الذين كانوا يعجبون بأخباره وغرائبه"[1].

ومن هنا يمكن القول أنّ رحلة عاشور بن موسى القسنطيني هي رحلة مسموعة لا مقروءة.

ومن أشهر الجزائريين الذين كانت رحلاتهم باتجاه المغرب العربي نجد الرّحالة الجزائري "عبد الرزاق بن حمادوش" الذي عاش في القرن 12 هـ والتي كانت بغرض طلب العلم والتجارة. انتقل فيها من مدينة الجزائر إلى تطوان ومكناس وفاس" وقد وصف ابن حمادوش الحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب الذي زاره مرتين على الأقل، وسجل ملاحظاته وأحكامه في مذكراته التي تعرف أيضا برحلة لسان المقال"[2].

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص397.

[2] المرجع نفسه، ج2، ص395.

ونظرا لتعدد الرّحالين الجزائريين واختلاف اتجاهاتهم وتنوع أغراضهم تعددت بذلك أشكال الرّحلة الجزائرية، فنجد منها السياسية والسياحية والدينية وغيرها...

وإذا بحثنا في أدب الرّحلة في الجزائر نجده متعدد الأغراض والغايات ولذلك تعددت أشكال التعبير فيه وتنوعت؛ فقد تتعدد القضايا في الرّحلة الواحدة، ممّا يصعب علينا تصنيفها وتبويبها، غير أنه قد تطغى غاية معينة على باقي الغايات فتطبع الرّحلة بطابع خاص وتميزها بمميزات معينة.

كانت إسهامات الجزائريين في أدب الرّحلة واضحة، فقد أنتجوا أدباً لا يستهان به في هذا المجال، وبخاصة في القرن الثاني عشر للهجرة.

كتبوا في الرّحلة العلمية التي كان هدفها الأساس طلب العلم، والبحث عن العلماء، والجلوس في حلقاتهم، والاستزادة منهم، والرّحلة الرسمية التي تكون رفقة أمير أو سلطان أو بتكليف من مسؤول.

انصب اهتمام الرّحالة الجزائريين على الرّحلة الحجازية، فألفوا فيها رحلات سردية، وقصائد شعرية وصفوا فيها مشاق الطريق إلى الحجاز، منذ خروجهم من الديار إلى غاية وصولهم إلى البقاع المقدّسة؛ وفي هذه القصائد مدح للرسول صلى الله عليه وسلّم، ووصف للمناسك والشعائر؛ ذلك أن الحجّ إلى الدّيار المقدّسة بالنسبة إليهم كان من أعظم دوافع الرّحلة، فاتجهوا إلى الأراضي الطاهرة للقيام بالفريضة، وزيارة قبر الرّسول الكريم. كان الحجّ، ولا يزال، رحلة يتشوق لأدائها كلّ مسلم، ورغبة ملحّة تساور المغاربة في الخروج من أوطانهم، وبلّ أشواقهم من هذا المقصد الشريف.

3/ ابن الفكون (حسن بن عليّ القسنطيني):

هو أبو عليّ حسن بن عليّ بن عمر القسنطيني المعروف بابن الفكون، من أعيان قسنطينة، ومن أشهر أسرها المعروفين بالعلم والأدب. اشتهر في العهد الموحدي، وهو شاعر المغرب الأوسط في زمانه. وقد تفنّن ابن الفكون في علوم شتى، فكان رحالة وأديبا وفقيها، وشاعرا ماهرا، قال عنه الغبريني:" من العلماء الذين تُستظرف أخبارهم وتروق أشعارهم، غزير النظم والنثر وكأنّهما أنوار الزهر، وهو من الفضلاء النبهاء وكان مرفع المقدار، ومن له الحظوة والاعتبار، وكان الأدب له من باب الزينة والكمال، ولم يكن يحترف به لإقامة وُدّ أو إصلاح حال، وأصله من قسنطينة من ذوي بيوتاتها ومن كريم أرومتها وتواشيجه مستحسنة"[1].

وقد اشتهر هذا العالم لموالاته للبلاط الموحدي حيث مدح خلفاءهم في العديد من قصائده، حتى أجزلوا له العطاء ونال منهم العديد من الجوائز.

بحث العبدري عن من يروي له قصيدته المشهورة في رحلته من قسنطينة إلى مراكش فلم يجد، فقيّدها غير مروية، وعلّق عليها، وكان القسنطيني كتب بها إلى أبي البدر بن مردنيش، وهو بقسنطينة، وامتدح فيها خليفة بني عبد المؤمن (الوافر)[2].

ألا قُلْ للسَّريّ[3] ابنِ السَّريّ أبي البَدْرِ الجَوادِ الأَرْيحـيّ[4]

أَيَا مَعْنى السِّيادَةِ والمَعَالي ويا بحرَ النَّدى بَدْرَ النَّـدِيّ

أمَا وبحَقِّكَ البُدْيِ جَـلالاً وَمَا قَدْ حُزْتَ مِن حَسَبٍ عَلِيّ

وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ ذِمامٍ وما أُويتَ مِنْ خُلُقٍ رَضِـيّ

---

[1] أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، (د، ط)، (د، ت)، ص 280.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد العبدري، رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كردي، قدَّمَ لها: شاكر الفَحَّام، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 1999، ص62.

[3] شَرِيفٌ سَخِيٌّ.

[4] رجل أريحيٌّ: الوَاسِعُ الخُلُقِ، منْ يَسْعَى إلى المعْروفِ وعَمَلِ الخَيْرِ. يتمتَّعُ بأريحيَّةٍ: خَصْلَة تَجْعَلُ الإنْسانَ يرْتَاحُ إلى الأفعال الحميدَةِ وبَذْلِ العَطَايا.

لقد رَمَتِ العُيونُ سِهَامَ غُنْجٍ[1] وليسَ سِوى فُؤَادِي منْ رَمِيّ

فَحَسْبُكَ نَارُ قَلْبِي مِنْ سَعيرٍ وحَسْبُكَ دَمْعُ عَيْني مِنْ أَتِيّ

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ طُرّاً سِوى زيدٍ وَعَمْرو غَيرُ شَيّ

فَلَمَّا جِئْتُ مِيلَةَ خَيْرَ دَارٍ أَمَالَتْنِي بِكُلِّ رَشًا أَبِيّ

وكَمْ أَوْرَتْ ظِباءُ بَني وَرارٍ أُوارَ الشَّوْقِ بالرّيقِ الشَّهيّ

وَجِئْتُ بِجَايَةً فَجَلَتْ بُدُوراً يَضيقُ بِوَصْفِهَا حَرْفُ الرَّويّ

وَفِي أرضِ الجَزائرِ هَامَ قَلْبِي بِمَعْسُولِ المَراشِفِ كَوْثَريّ

وَفِي مِليانةٍ قَدْ ذُبتُ شَوْقًا بِلِينِ العِطْفِ والقَلْبِ القَسِيّ

وفِي تَنَسٍ نَسيتُ جَميلَ صَبْرِي وَهِمْتُ بِكُلِّ ذِي وَجْهٍ وَضِيّ

وفِي مَازُونةٍ مازِلتُ صَبًّا بِوَسْنانِ المحاجِرِ لَوْذَعِيّ[2]

وفِي وَهرانَ قَدْ أَمْسَيْتُ رَهناً لِظَامِي الخصرِ ذِي رِدفٍ رَويّ

وأبدَتْ لي تِلِمْسانٌ بدوراً جَلَبْنَ الشَّوقَ للقَلْبِ الخَلِيّ

ولمَّا جِئتُ وَجْدَةَ هِمْتُ وَجداً بِمُنْخَنِثِ المَعَاطِفِ معنويّ

وحَلَّ رَشَا الرِّباطِ رِشا رِباطي وتَيَّمَني بِطَرْفٍ بابليّ

وأطلعَ قُطرُ فاسٍ لي شُمُوساً مَغَارِبُهُنَّ في قلْبِ الشَّجيّ

وما مِكْنَاسَةٌ إلاّ كِنَاسٌ لأحوى الطَّرْفِ ذِي حُسْنٍ سَنِيّ

وإن تَسْلا عَن أَرضِ سَلاَ فَفيها ظِباءٌ صائداتٌ للكميّ[3]

وفِي مرَّاكشٍ يا وَيْحَ قَلْبِي " أَتَى الوَادِي فَطَمَّ على القَريّ"

بُدُورٌ بَلْ شُمُوسٌ بَلْ صَبَاحٌ بَهِيٌّ في بَهِيٍّ في بَهِيّ

---

[1] ذو غُنْجٍ: ذو دلالٍ، والغُنُجُ: الدّلال وملاحة العينين.

[2] طَالبٌ لَوْذَعِي: أَلْمَعِيٌّ ذَكِيٌّ حَاضِرُ البدِيهَةِ، مُتَوَقِّدُ، خَطِيبٌ لَوْذَعِيٌّ: فَصيحُ اللِّسانِ.

[3] الشُجاعُ المقدامُ الجريء.

أَتَحْنَ مَصَارِعَ العُشَّاقِ لمَّا سَعَيْنَ بِهِ فَكَمْ مَيْتٍ وحــيّ
بقامَةِ كلِّ أَسْمَرَ سَمْهَـرِيٍّ[1] وَمُقْلَةِ كُلِّ أَبْيَـضِ مَشْرِفـيّ
إِذَا أَنْسَوْنِي الوُلدانَ حُسْناً أُنَسِّيهم هَوَى غَيْـلَانَ مَـيّ[2]
فَها أنا قد تَخِذْتُ الغَرْبَ دَاراً وأُدْعَى اليَومَ بالمَرَّاكُشِــيّ
على أنَّ اشْتِيَاقِي نَحْوَ زَيْـدٍ كَشَوْقِي نَحْوَ عَمْرو بالسَّوِيّ
تَقَسَّمَنِي الهَوى شَرْقاً وغرباً فيَا للمَشْرِقِيّ المغربــيّ
فَلِي قَلْبٌ بأرضِ الشَّرْقِ عَانٍ وَجِسْمٌ حَلَّ بالغربِ القصِيّ
فهـذا بالغُدُوّ يَهيمُ غَرْبـاً وَذَاكَ يَهيمُ شَرْقاً بالعَشــيّ
ولو لا الله مِتُّ هَوى وَوَجْداً وكَمْ لله مِنْ لُطفٍ خَفَــيّ

أشاد الشاعر بالحسن والجمال الذي رآه، وخلص في آخر القصيدة إلى تشتت نفسه، وتعلق قلبه بمن يهوى ويحب، فجزء منه بالمغرب وجزء آخر بقسنطينة؛ فقد قسمت الغربة أعشار قلبه، فهو يعاني من حالتين ولاؤه للأمير في مراكش وتعلّقه به، وتعلّقه بقسنطينة وبعده عنها.

علّق العبدري على هذه القصيدة في رحلته قائلا:" قلت: قال أهل اللغة الغنج، والغنج الدَّلُّ وحسن الشكل فقوله:

لقد رمت العيون سهام غنج، غير ملائم وقائله لا يصلح من لائم، ولا يحسن في الأدب خطاب ذوي الرّتب بمثل قوله: **فحسبك نار قلبي من سعير**

وإذا نَعَى على أبي الطيب قوله[3]:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وقوله:

إذا ما لبست الدّهر مستمتعا به تخرقت والملبوس لم يخترق

[1] السَّمْهَرِيُّ: الرُمحُ الصَليبُ العُودِ يقالُ هوُ منسوبٌ إلى سَمْهَرٍ: رَجُلٌ كانَ يُقَوِّمُ الرِّمَاحَ.

[2] قصة شعبية جرت أحداثها في الخور.

[3] العبدري، رحلة العبدري، ص65.

وقد علم أنّ المخاطب بذلك غير الممدوح، فما الظن بهذا؟

وقوله:" أما وبحقك المبدي جلالا"، وقوله: " بوسنان المحاجر لوذعي" موضوع في غير موضعه، فإنّ الوسن إنّما يوصف به الجفن والعين والطرف، وما جرى مجراه كما قال عدي بن الرقاع:

وسنان أقصده النعاس فرتقت في عينيه سنة وليس بنائم

وأفرطوا حتى جعلوه مرضا، فقال النابغة:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

وتبعه جرير فقال:

إنّ العيون التي في طرفها حور قتلنا م لم يحيين قتلانا

وهو نقد فيه من النظرة الصائبة والتعليل اللغوي الدقيق في استعمال الألفاظ ومعانيها ودلالتها، وفي حسن المدح والتنبيه، وموافقته للمقاييس اللغوية والنقدية في عصره.

وعلى الرّغم من ذلك فإنّ وقفة العبدري في قسنطينة، وذكر شاعرها ابن الفكون على الرّغم من عدم حصوله على القصيدة وعلى ديوان شعره، فقد أخذ من الرّحالة حيّزا من اهتمامه وتبجيله والإشادة بفضل هذه الرّحلة التي خلدها الشاعر في رحلته من قسنطينة إلى مراكش برّا، وقد أتى على ذكر أهم المدن التي مرّ بها، مشيدا بالحسن والجمال الذي رآه الشاعر، وكيف خلص من آخر القصيدة إلى تشتت نفسه وتعلّق قلبه بمن يهوى ويحب، فجزء منه بالمغرب وجزء آخر في الشرق بقسنطينة، وهي حيرة الشاعر المولّه الذي قسمت أعشار قلبه فحبّه وولاؤه غَرّبه، وهواه وشوقه لمن علقت قلبه تُشرّق قلبه إلى قسنطينة.

وهو في ذلك بين مدّ وجزر، أو بين إقبال وإعراض، وبين رضا وسخط على الزمان الذي لا يجتمع فيه للإنسان غايتان في آن واحد.

ثمّ يلتجئ إلى الله الذي يحفظ النّاس من الغم والهم ولولاه لمات حزنا وكمدا.

ويقول العبدري مضمنا معاني قصيدة ابن الفكون في قصيدته التي ختم بها رحلته قوله[1]:

عليك النصح رده بكل حي وإن ألفيت وارده فحيي

[1] العبدري، رحلة العبدري، 580.

فمعظم ديننا نصح البرايا كذاك أتى الحديث عن النبي

ثم يُغيرُ على معاني ابن الفكون القسنطيني بقوله[1]:

وقالت لي بجاية أنت خلو فيا ويح الشجي من الخلي

وجئت بني ورار وهي عمري أثارت كامن الشجن الخفي

وميلة لم تمل عن نهج نصح أَصِخْ إن كنت ذا فهم سني

ومن شاء الحديث فقل قسنطيـــــ نة تروى حديث المغربي

تلك هي المعاني التي اقتبسها وأغار عليها العبدري في نظم رحلته متوسما في رحلة ابن الفكون النموذج والمثال الذي يحتذى.

[1] العبدري، رحلة العبدري، ص582.

4/ رحلة ابن قنفذ القسنطيني (740هـ – 810هـ) :

هو العلامة المتفنّن الرّحالة القاضي أبو العباس أحمد بن حسن (حسين) بن عليّ بن ميمون ابن قنفذ، الشهير بابن الخطيب، وبابن قنفذ[1].

ولد سنة 740هـ في مدينة قسنطينة[2] من بلاد الجزائر، نشأ في بيت علم، وفضل، ووجاهة، كان والده حسن بن عليّ عالما جماعا للكتب. توفي وترك ابنه صغيراً لم يتعد العشر سنوات من العمر، فتولّى كفالته جدّه لأمّه يوسف بن يعقوب الملاري (764هـ) الذي كان من مشاهير الصوفية في مدينة قسنطينة.

بدأ دراسته الأولية على يد أبيه وجدّه لأمّه الذي حفظ على يديه القرآن الكريم، كما لقنه علوم العربية من نحو وصرف وأدب وحديث، أخذ أيضاً على بعض الشّيوخ منهم: الحسن بن خلف الله بن باديس القسنطينيّ (784هـ)، والحسن بن أبي القاسم بن باديس القسنطينيّ (787هـ) وغيرهما، ولما استكمل أخذه عنهم ارتحل إلى تلمسان عاصمة بني زيان، حاضرة العلم، والثقافة، ومدينة العلماء آنذاك، والتقى بعلمائها، وأخذ عن شيوخها التفسير، والحديث الشريف، والفقه، والأدب، والنحو، وفي هذه المدينة وقف عند زاوية شيخها أبي مدين شُعيب بالعُبَّاد، وتبرّك بضريحه.

وبعد ذلك انتقل إلى المغرب الأقصى، فاستقر بفاس عاصمة بني مرين، وأقام بها مدّة طويلة تقرب ثماني عشرة سنة (759هـ – 777هـ)طاف خلالها بربوع المغرب الأقصى، فدخل آسفى[3]

---

[1] ترجمته في : – أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906، ص27.
– أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص109.
– محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، ص250.
– أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ج2، ص508-510.
– خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، ص117.
– عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج6، ص610.

[2] قسنطينة من مشاهير بلاد إفريقية، بين تيجس وميلة، وهي مدينة كبيرة آهلة فيها آثار، كثيرة الخصب رخيصة السعر على نظر واسع وقرى عامرة، ينظر: محمد بن عبد المنعم الحِمْيَري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، ص480.

[3] آسفي: بلدة على شاطئ المحيط بأقصى المغرب. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص180.

وسلا[1]، ودكالة[2]، ومراكش[3]، وأزمور[4]، وغيرها من النواحي والمدن، فالتقى بعلماء ذلك العهد، وبأقطاب التّصوف أمثال أحمد بن عاشر، والأديب الأندلسي لسان الدين بن الخطيب، وشيوخه، فأخذ عنهم التفسير، والحديث، والفقه، والسيرة، والتراجِم، والأدب.

وما ميّز هذه الفترة اهتمامه بأسرار التّصوف والبحث عن خصائصه، وزيارة أضرحة المشاهير من أعلامه. وفي دكالة تولّى منصب القضاء سنة (769هـ).

قرر ابن قنفذ بعد هذه الرّحلة الطويلة في المغرب الرجوع إلى بلدته قسنطينة، لكنّه لم يلبث إلاّ أياما قليلة، وسافر بعدها إلى تونس، ليأخذ عن علمائها وفقهائها، إلاّ أنّه لم يبق بها طويلا؛ فقد عاد إلى قسنطينة، واستقر بها حتى وفاته (810هـ)، وتولّى بها الإمامة والخطابة في مسجدها الجامع، كما عمل على إلقاء دروسٍ في التفسير والحديث في مسجد المدينة وفي بيته، فانتفع بعلمه كثير من طلاب العلم، ثمّ تولّى بعد ذلك منصب القضاء.

ترك هذا العلامة الكبير مجموعة من الكتب القيّمة تزيد على ثلاثين مصنفاً في علوم شتى؛ منها: " شرح الطالب في أسنى المطالب "، و" تيسير المطالب في تعديل الكواكب "، و" شرح منظومة ابن أبي الرجال "، و" بغية الفارض في الحساب والفرائض "، و" سراج الثقات في علم الأوقات "، و" الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية "، و" الوفيات "، و" أنس الحبيب عن عز الطبيب "، و"القنفذية في إبطال الدلالة الفلكية "، و" تحفة الوارد في اختصار الشرف من قبل الوالد "، و" أنس الفقير وعزُّ الحقير " التي

---

[1] ببلاد المغرب، بينها وبين مراكش على ساحل البحر تسع مراحل، وهي مدينة قديمة أزلية، فيها آثار للأول معروفة بضفة الوادي، متصلة بالعمارة التي أحدثها هناك أحد ملوك بني عبد المؤمن. وكان قد اتخذ أرباب البلد مدينة بالعدوة الشرقية، وهي المعروفة الآن بسَلاَ الحديثة، وهي على ضفة البحر، وسلا القديمة خراب الآن. وأمّا سَلاَ الحديثة فهي منيعة من جهة البحر لا يقدر أحد من أهل المراكب على الوصول إليها من جهته، وهي حسنة من أرض رمل. ينظر: عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، ص319.

[2] بلد بالمغرب يسكنه البربر، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص459.

[3] تقع شمال أغمات، بناها يوسف بن تاشفين أمير المسلمين في صدر سنة 470هـ، وقيل سنة 459هـ، بعد أن اشترى أرضها من أهل أغمات بجملة من أموال واختطها له ولبني عمّه، وهي في وطاء من الأرض، وليس حولها من الجبال إلاّ جبل صغير يسمى إيجليز. ينظر: عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، ص540.

[4] مدينة واقعة على الضفة الجنوبية لنهر أم الربيع، تبعد 80 كلم عن الدار البيضاء من جهة الجنوب، و17 كلم عن الجديدة من جهة الشمال. وهي إحدى المدن المغربية العتيقة، ولكن تاريخها قبل الإسلام لا يعرف بوضوح، ذكر أبو القاسم الزياني أن أمراء صنهاجة أسسوها لما استقر البربر بالمغرب. كان لها بعد الفتح الإسلامي شأن في العلم والدين والسياسة والعمران. ينظر: علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ص32.

هي موضوع البحث؛ وهي رحلة تَقَصَّى فيها تنقلاته بالمغرب الأقصى، ومن لقِيَهم من أهل العلم والصلاح.

هيمنت الثقافة الدّينية والرّوحية، وانتشر التّصوف خلال القرن الثامن للهجرة، حيث كثرت الطوائف الصوفية والزّوايا، التي كان يرتادها المريدين والزائرين بصفة عامة. فعملت الزوايا، والرّبط على نشر التّصوف، وتربية مختلف طبقات المجتمع على الأخلاق الحميدة، وترويض النفس على هجران الماديات، ونبذ الدّنيا، والاجتهاد في العبادات، فكانت بمثابة مؤسسات دينية واجتماعية. وهذا ما عكسته رحلة " أُنس الفقير " التي رصدت حياة الصوفية بالمغرب برجالها، وفرقها، وتجمعاتها.

أفاض ابن قنفذ القسنطيني في وصف ارتساماته عن الشخصيات المغربية الفذّة، أبرز من خلالها النهضة الدّينية والعلمية في بعض المدن المغربية، وبخاصة فاس حاضرة المغرب المريني، فرصد الرّحالة حياة الصوفية بالمغرب في عصره، حيث كثرت خلال القرن الثامن للهجرة في عهد المرينيين الطوائف الصوفية والزّوايا التي كان يرتادها الطلبةُ والمريدون، فأحصاها ابن قنفذ فوجدها متعددة في المغرب الأقصى، حيث اختلفت هذه الطرق التي اتّبعها المشايخ باختلاف مشاربهم، وتربيتهم الرّوحية، فهناك من المشايخ من سلك طريق الشّدة في تربية المريدين، كالإكثار من الصيام والسهر والخلوة بالنفس والاعتزال عن النّاس والدوام على الذكر، ومنهم من سلك طريقة اللين، ومنهم من اتخذ طريقة وسطى بين الشّدة واللين، ومن هذه الطوائف التي ورد ذكرها في رحلة أنس الفقير وعزُّ الحقير[1]:

1/الشعيبيون: هم طائفة أبي مدين آزمور من أشياخ الشّيخ أبي يعزى.

2/الماجريون: هم طائفة أبي محمد صالح الماجري، ومنهم الدكاليون.

3/الصنهاجيون: من طائفة بني آمغار من بلد تيطنفطي من أقران أبي شعيب.

4/الحُجّاج: هي طائفة لا يدخلها إلاّ من حجّ بيت الله الحرام.

5/الحاحيون: منهم جملة من جبل دَرْن، وهم طائفة أبي زكرياء يحي بن أبي عمر، وعبد الله بن يحي الحاحي.

6/الغماتيون: هم طائفة الشّيخ أبي زيد عبد الرحمن الهزميري.

كانت هذه جملة الطوائف الموجودة بالمغرب الأقصى، التي ذهب إليها ابن قنفذ، وجلس مع بعض شيوخها، واستفاد من علمهم، وتبرّك بدعائهم.

[1] ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعزّ الحقير، ص106.

والمتصوفة هم مجموعة من المسلمين تَلَبّسُوا برداء الطُّهر، والعفة، والزُّهد، والتوبة، وابتعدوا عن ملذات الدُّنيا، فكان في كل زاوية شيخ ومجموعة من الطّلبة يطلق عليهم اسم المريدين، يتّبعونه ويستزيدون من علمه وحكمته، جمعت بينهم روابط مودّة وأخوّة في الله تعالى، وهناك مجموعة من الآداب تحلّوا بها، سردها ابن قنفذ في رحلته، منها[1]:

* الإخاء في الله تعالى.
* قوة الإيمان في التخلق والصبر، واحتمال الأذى، وصفاء المعاملة.
* قبول العُذر، والتماسه، والصفح، والإحسان.
* نفي التمييز في المال وجميع الأحوال، ونفي الافتقار إلى الاستئذان.
* أن يحبّ المرء لأخيه ما يحبّ لنفسه.
* الإكثار من صحبة الصّالحين فإنّ فيهم الشّفعاء.
* إحسان الظّن.
* التخلق بالأخلاق الجميلة، والتواضع.

خصّص ابن قنفذ رحلته " **أنس الفقير وعزُّ الحقير**" لتَتّبُع حياة، وسيرة الأولياء والصلحاء المغاربة، فأفاض في وصف الجوّ الرّوحي في المغرب العربي، حيث قضى مدّة طويلة بين بلدانها يتقصَّى أَثَرهُم، وبركاتهم، فقد وضع رحلته خصّيصاً للترجمة بأبي مدين شعيب، وشيوخه، وتلامذته، والطرق الصوفية التي انتشرت في المغرب في ذلك العهد.

– بنية رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير " لابن قنفذ القسنطيني:

سنلقي الضوء على رحلة ابن قنفذ لدراستها، وتتّبُع مراحل سيرها، والطريق الذي نهجه الرّحالة، وسار على خطاه.

١/ المقدمة : وتشتمل على:

- الحمدلة والصلاة والسلام على الرّسول الكريم.
- الدافع وراء كتابة الرّحلة:" رغب إليّ من يتكرم عليّ من بعض إخواني في الدين في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين نفعنا الله به وبأمثاله من المسلمين"[2].

[1] ابن قنفذ القسنطيني، رحلة أنس الفقير وعزّ الحقير، ص133 ، 134.

[2] المصدر نفسه، ص30.

- تاريخ، ومكان كتابة الرّحلة (في شهر رمضان سنة 787هـ بمدينة قسنطينة).
- هدف الرّحلة: الترجمة للشّيخ أبي مدين شعيب.
- تسمية الرّحلة بـ " أنس الفقير وعزُّ الحقير ".

قبل ولوج ابن قنفذ إلى ذكر سفره، قدم له بمقدمة تمهيدية تضع القارئ في صلب الموضوع، وتُعَرِّفه على أمور وجب عليه أن يعرفها حتى لا يلتبس عليه ذلك فيما بعد، فيقع في حيرة من أمره، ويخطر بباله عدّة تساؤلات، ولإزالة ذلك، وتجنباً من الوقوع فيه عقد فصلين عَرَّف فيهما بـ: صفة الوليّ، وكرامات الصحابة والأولياء في الحياة وبعد الممات، والفرق بين مكاشفة المسلم والنصراني، ليختم مقدمة كتابه بوصية فيها بيتين من الشعر قالهما بعض الصالحين[1].

٢/ السّفر (الرّحلة):

بعد الانتهاء من الحديث عن صفة الأولياء وكراماتهم رجع ابن قنفذ للموضوع الذي كان بصدده، وهو الكلام عن شيخ المشايخ أبي مدين شعيب، والتّعريف به.

تُعدُّ رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير " من الرّحلات الزيارية، قصد صاحبها زيارة الأولياء الصالحين، والمشايخ الأتقياء الأحياء منهم والأموات، وسيكشف البحث عن مراحل رحلته خطوة خطوة، وسيوضح ذلك في دراسة بِنْيَة السّفر.

بدأ ابن قنفذ حديثه بمولد الشّيخ أبي مدين شعيب وعائلته، وبداية طلبه للعلم، حيث سافر إلى فاس، فأخذ العلم على يد أكابر شيوخ الصوفية مثل أبي يعزى، وابن حرزِهم الذي وقف الرّحالة على قبره أثناء إقامته بالمغرب، فختم حديثه عنه ببيتين من الشعر كثيراً ما رددهما هذا الشّيخ. كانت أول زيارته له عام 759هـ. ثمّ ذكر كلام الشّيخ أبي مدين ووصاياه (أربع وأربعون وصية)، ليتحدث عن شيوخه وأصحابه أمثال أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي، وأشار الرّحالة إلى التقائه بأحد حفدة أبي يعزى، والتّبرك به وذلك سنة 761هـ. فختم ترجمته للشّيخ أبي يعزى بثلاثة أبيات شعرية استوجبها

---

[1] والبيتان هما:

قَدْ أَحدَثَ النَّاسُ أُمُورًا فَلاَ تَعْمَلْ بِهَا إِنِّي امرؤٌ نَاصِحُ
فَمَا جِمَاعُ الخَيْرِ إلا الذّي كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ

ولابن قنفذ في هذا المعنى:

الفَقْرُ إِنْ فَكَّرْت فِيهِ رَأَيْتَهُ قَدْ دَارَ بَيْن قَوَاعِدٍ مُتَتَالِيَهْ
فَاطْلُبْهُ فِي القُرْآن أوْ فِي سُنَّةٍ وَاعْضُدْهُ بِالإِجْمَاعِ وَاتْرُكْ تَالِيَه

– ابن قنفذ القسنطيني، رحلة أنس الفقير وعزُّ الحقير، ص44؛ التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص146.

المقام التعبيري، ثمّ تحدث عن الشّيخ أبي الحسن عليّ ابن غالب شيخ أبي مدين، فاستشهد ببيت شعري، وترجم أيضا للشّيخ أبي عبد الله الدقاق، فأورد ثلاثة أبيات شعرية سمعها أحد الصحابة في نومه، وهي رسالة مبعوثة خصيصاً لأبي عبد الله الدقاق. ومن الشّيوخ الذين ترجم لهم، وختم تعريفه لكل واحد منهم بأبيات شعرية: أبو زكرياء يحي الزواوي، وأبو عليّ يعزى، وأبو جعفر محمّد الصنهاجي، وأبو عبد الله التاودي، وأبو الحسن عليّ الصنهاجي، وأبو تميم الهزميري، وأبو الصبر أيوب السبتي، ويحي بن صالح، وأبو محمّد عبد الجليل الأنصاري، وأبو محمّد عبد الحق الإشبيلي، وأبو محمّد بن ينصارن الماجري، وحسن بن محمّد الغافقي، وأبو عبد الله محمّد الأنصاري، وأبو عليّ عمر الصباغ، وأبو عمران موسى الحلاج، وأبو عبد الله محمد بن عليّ.

ثمّ ذكر الرّحالة العقبات السبع، وختمها ببيتين من الشعر. ليعود مرة أخرى للتعريف ببعض المشايخ، أمثال: أبي مسعود ابن عريف. وأشار إلى وقوفه على قبر أبي بكر ابن العربي بين فاس القديم وفاس الجديد، وزيارته بآزمور من بلاد المغرب قبر الشّيخ أبي شعيب آزمور المعروف بأيوب السارية.

لينتقل إلى جدّه يوسف بن يعقوب البويوسفي، فترجم له ولتلامذته، ذاكراً بيتاً شعرياً للإمام أبي القاسم عمر بن عليّ السعدي المعروف بابن الفارض[1]، ومطلع قصيدة أبي عبد الله محمّد المسفر[2] المسمّاة بـ " نظم فرائد الجواهر في معجزات سيد الأوائل والأواخر صلى الله عليه وسلّم " ، وثلاث رسائل إخوانية له أيضا بعثها لجدِّه، وذلك عندما ترجم له.

زار في مدينة آسفي سنة 763هـ قبر الشّيخ أبي محمّد صالح. فوقف بها عند بعض أحفاده على كتاب مجموع فيه " المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى ".

ثمّ ذكر طوائف الصوفية بالمغرب، وأوليائها الصالحين. وفي سنة 768هـ دخل مدينة تانشناشت في أحواز مراكش، ولقي بها أخياراً. وزار في آغمات قبر أبي عبد الله ابن تيجلات.

لما وصل الرّحالة إلى المغرب اجتمع بعلمائها، وأوليائها الصالحين: (كان هذا الاجتماع على ساحل البحر المحيط، جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنفطر، وذلك في شهر ربيع الأول سنة 769هـ)، فترجم لهؤلاء المشايخ الذين التقاهم، وجلس معهم.

---

[1] وهو: لأَنْتَ مُنَى قَلْبِي وَغَايَةُ مَطْلَبِي وأَقْصى مُرَادِي واخْتِيَارِي وخِيرَتِي

ابن قنفذ القسنطيني، رحلة أنس الفقير وعزُّ الحقير، ص95.

[2] وهو: تَبَدَّتْ فَغَابَتْ واخْتَلَفَتْ فَتَجَلَّت فَشَاهَدتُّهَا حَالَى حُضُورِي وَغَيْبَتِي

– ابن قنفذ القسنطيني، رحلة أنس الفقير وعزُّ الحقير، ص96.

ثمّ ذكر آداب الإخوان، فختمها ببيت شعري، ليعود إلى ذكر أصحاب الشّيخ أبي مدين شعيب، والتعريف بهم، وختم حديثه عن كل واحد منهم بأبيات شعرية تناسبه، وتراعي المقام الصوفي، منهم: أبو محمّد عبد الله الصنهاجي، وفاطمة الأندلسية، وأبو محمّد عبد الله الصنهاجي الزرهوني، وأبو عبد الله محمّد حمادو الصنهاجي، وأبو عبد الله محمّد بن إبراهيم، وأبو محمّد عبد الخالق التونسي، وأبو الزهر ربيع الأنصاري.

بعدها أورد سند خِرقة الصوفية، فختمها ببيتين شعريين[1]، ليعود مرة أخرى إلى الحديث عن أصحاب أبي مدين شعيب، منهم: الشّيخ أبي محمّد عبد العزيز بن أبي بكر، فذكر في خاتمة الحديث عنه أربعة أبيات شعرية كتبها عبد العزيز برسم الشّيخ أبي مدين شعيب، وأورد فصولاً من رسالة إخوانية كتبها أبو مدين شعيب لعبد العزيز جواباً عن كتابه.

ثمّ تحدث عن وفاة الشّيخ أبي مدين شعيب، لينهيها بأربعة أبيات شعرية[2]. حيث زار الرّحالة قبره، ووقف على تربته، وعند رحيله من المغرب إلى قسنطينة سنة 776هـ، زاره مرة أخرى، ودعا له عند قبره بأن يُيَسّر الله له رحلته، وخروجه من تلمسان التي أقام فيها مدّة شهر بسبب المجاعة العظيمة. ثمّ وصف قبر الشّيخ أبي مدين، وتحدث عن أبي الفضل ابن النحوي، ذاكراً ثلاثة أبيات شعرية من قصيدته الجيمية المشهورة بالمنفرجة[3].

---

[1] والبيتان هما:

لِلصَّالِحِينَ مَنَاقِبٌ مَأْثُورَةٌ يَجْلُو مَآثِرَهَا الطّرِيقُ الأَوْفَقُ
شَاعَتْ بِأَلْسِنَةِ الثّقَاتِ وَكُلُّهُمْ مُتَحَقّقٌ فِيمَا رَوَاهُ مُحَقّقُ

– ابن قنفذ القسنطيني، رحلة أنس الفقير وعزُّ الحقير، ص139؛ التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص113.

[2] والأبيات هي:

ذَكَرْتُكَ لاَ أَنّى نَسِيتُكَ لَمْحَةً وَأَهْوَنُ مَا فِي الذّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي
وَكِدْتُ بِلاَ وَجْدٍ أَمُوتُ مِنَ الهَوَى وَهَاجَ عَلَىّ القَلْبُ بالخَفَقَانِ
فَلَمَّا رآنى الوَجْدُ أَنَّكَ حَاضِرِي شَهِدْتُكَ مَوْجُودًا بِكُلّ مَكَانِ
فَخَاطَبْتُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ وَلاَحَظْتُ مَعْلُومًا بِغَيْرِ عِيَانِ

– ابن قنفذ القسنطيني، رحلة أنس الفقير وعزُّ الحقير، ص148؛ التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص324.

[3] وهي: اِشْتَدى أَزْمَةُ تَنْفَرِجِ قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بالبَلَجِ
وظَلاَمُ اللّيْلِ لَهُ سُرُجٌ حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو السُّرُجِ
وسَحَابُ الخَيْرِ لَهَا مَطَرٌ فَإِذَا جَاءَ الإبَانُ تَجِى

– ابن قنفذ القسنطيني، رحلة أنس الفقير وعزُّ الحقير، ص152؛ أبو الفضل يوسف ابن النحوي، المنفرجة، 22 – 23.

٣/ الخاتمة:

- ختم ابن قنفذ كتابه بنكت تنفع الفقير وتُعِزُّ الحقير.
- الإعلان عن نهاية الكتاب الذي وُضِعَ لذكر فضائل الشّيخ أبي مدين شعيب.
- الحمدلة (الحمد الله).
- الصلاة والسلام على سيّد الأولين والآخرين محمّد صلى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه والتابعين.
- الحوقلة (لا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم).

*** دراسة البِنْيَة:**

لكلّ رحلة بداية ونهاية، ولدراسة بنيتها الفنية، لابُدّ من معرفة كيفية مجيء البداية، وكيفية وصول الرّحالة فيها إلى النهاية.

ولتبيّن ذلك لابُدّ من البدء بالمقدمة، فالمقدمات عنصر من عناصر الأساسية المكوّنة لهيكل الرّحلة، وغالبا ما تأتي كإضاءات من حيث ظروف المشروع وهدفه، والمنهج المتّبع، وذكر المميزات الخاصة[1]. استهل ابن قنفذ رحلته بالحمدلة والصلاة والسلام على النّبي صلى الله عليه وسلّم، والدافع وراء كتابته للرّحلة؛ فقد رغب إليه بعض أصحابه تقييد شيء من كلام الشّيخ أبي مدين شعيب وأمثاله من المشايخ، فما كان من ابن قنفذ إلاّ أن نفذ رغبتهم التي كانت فيها فائدة جليلة لطلاب العلم، والرّاغبين في سلوك طريق التّصوف، فجاء هذا الكتاب يُعرِّف بالتّصوف، وطرقه وأولياء الله الأتقياء، وأحوالهم، وصفاتهم، وزهدهم في الدّنيا، وحبّهم للآخرة، والكرامات والخوارق التي أيّدهم الله بها لتكون عونا لهم على نشر تعاليم الدّين الإسلامي، واستقطاب أكبر عدد ممكن من النّاس.

دُوِّنت هذه الرّحلة في مدينة قسنطينة في شهر رمضان المعظّم سنة 787هـ. وُضِعت خصّيصاً للتّرجمة بشيخ المشايخ، وقدوة السالكين أبي مدين شعيب، وبأشياخه وتلامذته الأخيار. سُميت هذه الرّحلة بـ " أنس الفقير وعزُّ الحقير ".

بعد عرض مضمون الرّحلة والموضوعات التي تناولها الرّحالة فيها، انتقل إلى الحديث عن خطوات سيره وترحاله، مع العلم أنّه لم يذكر، كغيره، من الرّحالين انطلاق رحلته، وتواريخ دخوله وخروجه من المدن التي مرّ بها في طريقه. وهذا راجع إلى تركيزه على الناحية الزّيارية ذات الطابع الصّوفي أكثر من

[1] زردومي إسماعيل، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، ص68.

تركيزه على النواحي الأخرى، فجاء اهتمامه منصباً على الناحية الدّينية الرّوحية بزيارة الأولياء الأحياء منهم والأموات، والوقوف على أضرحة الصالحين إلى درجة أنّه خصّص رحلته للتعريف بأبي مدين شعيب وأصحابه وتلامذته، ولهذا السبب انساح في أرجاء المغرب باحثاً عن رجالات التّصوف، وملاقاتهم، والاستفادة منهم؛ وقد أسفرت قراءة رحلته عن مراحل سفره الآتي ذكرها:

سافر ابن قنفذ من مدينة قسنطينة إلى فاس عاصمة بني مرين لينهل من علم شيوخها، ويستزيد من العلم الذي خرج من أجله، وخلال إقامته واستقراره فيها تولدت لديه فكرة البحث عن أقطاب التّصوف، ورج ورجالاته والتّعمق في أسراره، وهذا لا يتأتى إلاّ بالرّحلة والتقصّي والبحث.

من هنا كانت انطلاقة ابن قنفذ بين ربوع المغرب الأقصى، متنقلاً بين القرى والمدن، راصداً من لقيّهم من أهل الفضل والصلاح، ومن وقف على تربتهم من الأولياء الصالحين.

وممّن لقيّهم الرّحالة في هذه الرّحلة من المشايخ الأحياء أحد حفدة الشّيخ أبي يعزى، وكان ذلك سنة 761هـ. حيث أبان ابن قنفذ أنّ هدفه الوقوف على قبر الشّيخ أبي يعزى رحمه الله، إلاّ أنّ ذلك لم يتم له؛ فقد بقي بينه وبين تاغية (حيث ضريح الشّيخ) نصف يوم. فكانت هذه البلدة أوّل مدينة ذكرها الرّحالة خلال سفره.

وفي سنة 763هـ ذهب إلى مدينة آسفي، حيث وقف على قبر الشّيخ أبي محمّد صالح، وفيها اطلع على كتاب مجموع فيه " **المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى** "، وجده عند بعض أحفاد هذا الشّيخ.

وفي سنة 768هـ دخل تانشناشت في أحواز مراكش، وفيها التقى بمجموعة من عباد الله الأخيار.

أمّا في سنة 769هـ فاجتمع ابن قنفذ بعلماء المغرب وأوليائها الصالحين. كان هذا الاجتماع على ساحل البحر المحيط، جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنفطر، وذلك في شهر ربيع الأوّل من هذه السنة.

هذا بالنسبة للمدن التي دخلها، وذكر تاريخ دخوله إليها، وهذا لا يعني أنّه لم يزر غيرها، فرحلته تؤكد مروره بمدن أخرى، ولكن بدون تحديد تاريخ دخوله أو خروجه منها.

ومن هذه المدن مدينة سلا التي دخلها مراراً وتكراراً لزيارة الوليّ الشهير أحمد بن عاشر، كما وقف على قبر الشّيخ أبي بكر بن العربي بين فاس القديم، وفاس الجديد.

أمّا مدينة آزمور (من بلاد المغرب) فقد زارها هي الأخرى، ووقف على قبر الشّيخ أبي شعيب آزمور المعروف بأيوب السارية. ودخل أيضا بلد صفرو من أحواز مدينة فاس، وكذلك مدينة سكساوة. بحث في كلّ مدينة من هذه المدن عن أعلام التّصوف، وسعى للقائهم، والتماس البركة منهم.

وفي سنة 776هـ قرر الرّحالة العودة إلى بلده. مرّ في طريقه بِعُبّاد تلمسان، حيث زار ضريح الشّيخ أبي مدين شعيب. أقام في هذه المدينة مدّة شهر، لم يتمكن من الرّحيل منها بسبب المجاعة العظيمة، فلم يجد بُدّاً من التضرع والتوسل إلى المولى عزّ وجلّ، والوقوف على قبر أبي مدين شعيب، والدعاء له عند قبره بأن يُيَسِّرَ الله له رحلته، وخروجه من تلمسان. وبفضل الله، وبركة أوليائه الأتقياء تمكن من الرّحيل عنها إلى قسنطينة.

كانت هذه، إذاً، مراحل سفر الرّحالة، وتنقلاته بين ربوع المغرب باحثا عن أقطاب التّصوف ومقتفيا آثارهم. فبنى رحلته على التّرجمة لشيخ المشايخ أبي مدين شعيب، أشهر رجال التّصوف في المغرب وأصحابه وتلامذته الأخيار، وكلّ من اتصل به من كبار المشايخ.

أمّا نهاية الرّحلة فختمها ابن قنفذ بمجموعة قيّمة من النصائح، تنفع الفقير وتُعِزُّ الحقير فأطال في هذا المقام لعله يفيد من يريد سلوك طريق الزّهد والتّصوف، وبيَّن الخصال والصفات التي يجب أن يتحلّوا بها ليصلوا إلى هذه المرتبة العليا. خصّص لهذه النصائح حيزاً لا بأس به في رحلته فشغلت تقريبا عشر صفحات، ليعلن في الأخير عن نهاية الكتاب الذي وُضع خصّيصا للتعريف بالشّيخ أبي مدين شعيب، وذكر فضائله.

وككل نهاية أي رحلة لابُدّ من الحمدلة لله عزّ وجلّ الذي وفقه بعونه إلى كتابتها، والصلاة والسلام على خير الأنام محمّد صلى الله عليه وسلّم، وعلى أصحابه والتابعين إلى يوم الدّين.

***/ أسلوب رحلة ابن قنفذ:**

قبل الدخول في صلب الموضوع يجب أوّلا التعريف بكلمة الأسلوب، يقال للسَّطر من النخيل أُسْلوبٌ. وكُلُّ طريقٍ ممتدٍّ، فهو أسلوبٌ، والأُسْلُوبُ الطريق، والوجهُ، والمِذْهَبُ؛ يقال: أنتم في أُسْلُوبِ سُوءٍ، ويُجمَعُ أَسَاليبَ. والأُسْلُوبُ: الطريقُ تأخذ فيه.

والأُسْلوبُ، بالضم: الفَنُّ؛ يقال: أَخَذ فلانٌ في أساليبَ من القول أَي أَفانينَ منه[1].

[1] ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص473.

فالأسلوب هو طريقة الإنسان في التعبير، ولهذا قيل:" الأسلوب هو الرجل"[1]، أي أنّ الأسلوب هو مرآة شخص صاحبه، إن لم نقل هو الشخص نفسه، ولكلّ إنسان طريقته في التعبير، ومن هنا تتعدد الأساليب تبعاً لذلك.

يعرف ابن خلدون الأسلوب بقولـــــه:" المِنْوَالِ الذي يُنْسَجُ فِيهِ التَّرَاكِيبُ أَوِ القَالَبِ الذي يُفْرَغُ به "[2].

أمّا السجلماسي فيعرفه بـ: " الكيفية التي يتم بها التعبير على الأفكار "[3]. فهذان التعريفان يَصُبان في قالب واحد هو طرق، ومذاهب الكلام المختلفة.

وهناك من يُعرف الأسلوب بأنّه:" اختيارchoie أو انتقاء sélection يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين. ويدل هذا الاختيار أو الانتقاء على إيثار المنشئ وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة"[4]، فالكاتب يختار ما بدا له من الكلمات المتاحة أمامه، ليُعبر عن مقصده وغرضه بألفاظ موفية للمقاصد التي ذهب إليها. ومن هنا ينبع الاختلاف بين الكتاب أو الشعراء فيما كتبوه أو نظموه، فلكلّ منهم طريقته الخاصة في التعبير.

انطلاقا ممّا تقدم سيُلقى الضوء على أسلوب ابن قنفذ من خلال رحلته، واستجلاء أهم السمات البارزة في لغته.

أول ملمح من ملامح الأسلوب يُتناول بالدّراسة هو:

تصنف رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير " ضمن الرّحلات الزيارية ذات الطابع الصّوفي. اعتمد فيها صاحبها على ذاكرته في التحرير، فكلّ ما ذكره من أخبار أبي مدين شعيب وأصحابه وشيوخه كان نتيجة ترحاله، وتنقلاته داخل بلاد المغرب وربوعه.

كان ابن قنفذ في رحلته سارداً وكاتباً في الوقت نفسه ممّا يؤكد هيمنة الأنا النصية على الخطاب الرّحلي.

كتب ابن قنفذ رحلته بعد إلحاح بعض الإخوان عليه، فقيّد شيئاً من كلام الشّيخ أبي مدين، وبعض الشّيوخ الآخرين الذين التقاهم في أثناء رحلاته المختلفة، فجاءت رحلته مفككة التسلسل غير

---

[1] شكري محمد عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة الجيزة العامة، ط2، 1992، ص14.

[2] عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج1، ص786.

[3] أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ص157.

[4] سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، القاهرة، ط1992،3، ص37- 38.

متسقة مفتقرة للترابط والتناسب، وربمّا يعود هذا إلى اختفاء عامل الزمن في الرّحلة بشكل لافت للنظر، فافتتح رحلته بالحديث عن الوليّ وشروط الولاية، وعن الكرامة الصّوفية وارتباطها أو عدم ارتباطها بحصول الولاية، ليلج من خلالها في صلب الموضوع، وهو الحديث عن الشّيخ أبي مدين شعيب والتّعريف به، والترجمة لشيوخه وأصحابه، لينتقل بعدها إلى الحديث عن آداب الصوفية، وسندهم في إلباس خِرقة التّصوف. ثمّ عرّف بجدّه لأمّه يوسف بن يعقوب الملاري، وترجم لتلامذته وأصحابه. كما ذكر في رحلته أيضا حضوره للمواسم بالمغرب، ولقائه بأوليائه الصالحين ليعود مرة أخرى للحديث عن الشّيخ أبي مدين وأصحابه.

اتسمت رحلته بالبساطة في الأسلوب، والسهولة في الألفاظ وبخاصة عند سرد أخبار، ووصف كرامات الأعلام المترجم لهم في رحلته، مع توظيف بعض الألفاظ العامية كصحفة للصحن، ومخايد للوسادات، وكاملة ربّما لإناء الطعام؛ وقد علق محمّد الفاسي على هذه اللفظة فقال:" إن معناها إما نوع من الطعام أو إناء...فإن كوامل وهي جمع كاملة تدل على نوع المائدة المسماة ميدة بفاس وهي مقعرة مستديرة تجعل بداخلها الصحون وتغطى بما يسمى المكب أو بمنديل"[1]. ومن الجمل شبه العامية التي وظّفها في رحلته قوله: " سلَّمت لك في الجلوس ولا تنسنا بباطنك وأعطني سرجك نركب بها"[2]، فكلّ رحلته تقريبا على مثل هذا النحو من توظيف للألفاظ والجمل، وبعبارة أدق جاءت لغة رحلته في كثير من جوانبها ضعيفة، وفي جوانب أخرى بسيطة.

اعتمد ابن قنفذ فيها بشكل كبير على الترجمة لرجال التّصوف، فكان شغوفاً بالبحث عن عناصره وأقطابه، ولهذا لم يُعِرْ اهتماماً كبيراً للأسلوب، وإنّما كان شغله الشاغل، وهمُّهُ الكبير التّعريفَ بهؤلاء الرجال الأخيار الذين سلكوا طريق التّصوف، فجاء أسلوبه سردياً بسيطاً واضحاً جعل هدفه تقديم فكرة عن أقطاب التّصوف، وبخاصة أبي مدين شعيب، وأصحابه، وإخوانه الذين دفعوه إلى تحرير هذه الرّحلة بغية الاستفادة منها، والتعرُّف على مَن لقيّهم في غيبته. فلم تتكلف رحلته السجع وألوان البديع الأخرى إلاّ ما جاء في المقدمة:" الحمد لله الذي جعلنا من أمة محمد خاتم أنبيائه. وصرف قلوبنا إلى محبة أهل طاعته وأوليائه. وحفظ وجودنا بوجودهم في أرضه وسمائه. وجعلهم مراتب بحسب تفاوتهم في منازل

[1] أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعزّ الحقير، شرحه وحققه: محمد الفاسي، أدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص: ك.

[2] ابن قنفذ، أنس الفقير وعزّ الحقير، تح: أبي سهل نجاح عوض صيام، تقديم: علي جمعة، ص92.

أصفيائه. ووعدهم بالمزيد من فضله وإحسانه ونعمائه..."[1]. اعتمد في هذه المقدمة على الصنعة والسجع ليفتتح بها رحلته، وهو ما يسمى ببراعة الاستهلال، الذي يشدُّ انتباه المتلقي، ويقع في نفسه موقعاً حسناً.

تنمّ هذه المقدمة عن مقدرته الأدبية، وتفنّنه في أساليب البديع، فاعتمد فيها اعتماداً واضحاً على السجع، وجاءت عباراته المسجوعة ذات وقع في الأذن؛ فقد ألزم فيها نفسه أمرين أدخلاها في خانة التصنع، أولهما طول الجملة وآخرهما طول السجعة، فقد كررها خمس مرات، وهو ما يجعل الدارس يتيقن بأن الكاتب إنّما قصدها قصداً، وتكلفها بقصد التزيين والتحسين.

إلاّ أنّ ابن قنفذ لم يعتمد هذا الأسلوب في كامل الرّحلة، لأنّ طبيعة الموضوع عبارة عن تراجم فرضت عليه البساطة في الأداء والتعبير، وربّما عاد السبب إلى أنّ هؤلاء المتصوفة رجال بسطاء أتقياء، نبذوا الدُّنيا بزينتها وترفها، لينقطعوا إلى الله سبحانه وتعالى راضين بالزهيد مقتنعين به، ولهذا لم يعتمد الكاتب أسلوب البديع الذي يقتضى، أحيانا، التكلف والصنعة والحشو، لأنّه مظهر من مظاهر التفنّن في الحياة، وهذا ما لا يتماشي مع طبيعة هؤلاء الرّجال وتركيبتهم، فهم أُناس عاديون يحبّون البساطة، لهذا اعتمد ابن قنفذ في رحلته على الأسلوب السردي البسيط.

طَعَّمَ ابن قنفذ رحلته بشيء من الأدب الصوفي فحوت مكاتبات ورسائل إخوانية لها قيمتها الأدبية والصوفية، وهي ما تعرف عند المتصوفة بالمكاتبات السّنية، وهي الرسائل الإخوانية التي كانوا يتبادلونها فيما بينهم، وقد تضمنت موضوعات مختلفة مثل الثناء والنصح وطلب الدعاء، وفي كثير من الأحيان تخلّلها أبياتٌ شعرية. حفلت رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير " ببعض الرسائل الإخوانية، ولكنّها لم تكن من صنيع الرّحالة، وإنّما هي مجموعة من الرسائل وقف عليها عند جدّه لأمّه يوسف بن يعقوب بعثها إليه صديقه الشّيخ أبو عبد الله محمّد المسفر، كما وقف على رسالة أخرى من الشّيخ أبي محمّد عبد العزيز بن أبي بكر إلى الشّيخ أبي مدين شعيب.

هذه الرسائل أعطت فكرة عامة عن الموضوعات التي كانت متداولة عند الصوفيين في ذلك العصر، فجاءت رسائلهم حافلة بالألفاظ الدّينية، زاخرة بالعبارات الإسلامية، تدلُّ على الثقافة الفقهية، والتّربية الإسلامية المتأصّلة في أولئك المتصوّفة المنقطعين لعبادة الله عزّ وجلّ، ولهذا لم تخرج رسائلهم عن الثناء، والنصح، وطلب الدعاء، والاستغفار.

[1] ابن قنفذ القسنطيني، رحلة أنس الفقير وعزّ الحقير، ص30.

جاءت بنية هذه الرسائل مُفتتحة بالبسملة والتصلية على رسول الله وعلى آله وصحبه، ليدخل بعدها إلى الموضوع مباشرة. إلاّ أنّ هناك بعض الرسائل افتتحها أصحابها بأبيات شعريّة، وبعضها الآخر دخل مباشرة في الموضوع بعد الافتتاح.

كانت هذه لمحة وجيزة عن الرسائل الإخوانية الصوفية التي وردت في رحلة ابن قنفذ، وقد أثبتها ليُوضح طريقة الصوفيين والمريدين في تعاملاتهم، وكيفية انتقاء ألفاظهم وأساليبهم المستمدة من روح الثقافة الإسلامية، والمتشبّعة منها.

كما حوت رحلته، أيضا، مادة شعرية ذات غرض صوفي محض، هو الشعر الصوفي، الذي يعبّر عن تفرد التّجربة الإنسانية في رحلة استكشاف الذات والآخر والكون ذلك: " أن الشعر الصوفي كان من جانب آخر تطورا للشعر الديني الإسلامي"[1].

حفظت رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير " في متنها مادة شعرية متناثرة بين فقرات التراجم، إلاّ أنها لم تكن من نظمه، وإنّما استوجبها السياق التعبيري، فجاءت مراعية للمقام الصوفي.

اعتمد الصوفية في هذا النوع من الشعر على الرمز والإيحاء والإشارة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم في قالب من الصور البيانية والبديعية. فوظّفوا في أشعارهم الألفاظ السهلة الواضحة السلسة الصادقة الموحية بالغرض مباشرة، بحيث لا تحتاج طول التّأمل وإعمال الفكر، فالتزموا بالبساطة في الأسلوب عن طريق استخدام الخطاب المباشر. أمّا مضمونها فتمحور حول الوعظ والتّذكير حيناً، والحكمة الدّينية من ناحية أخرى، فضلاً عن الدعاء والاستغفار والتّوسل والاستغاثة، ويبدو أنّ هذا الشعر كان التطور الطبيعي للشعر الديني، غير أنّ للشعر الصّوفي مجموعة من الخصائص تميّزه عن بقية الأغراض الأخرى؛ نذكر بعضها بإيجاز:

1/ اعتماد الشاعر على الرّمز والكناية ليحمل البيت الشعري في طيّاته ما لا حصر له من الدّلالات، وهذا يدل على اتّساع خيال الشّاعر، وثراء معانيه، ورقة صوره.

2/ عناية الشعر الصّوفي بالحديث عن النّفس، وتظهر هذه الخاصيّة بصورة أوضح حين يتحدث الشاعر الصوفي عن محبّته، وما يلاقي فيها من وجد وشوق واحتراق، فعبّروا عن الحبّ الإلهي أعظم تعبير، واتّخذوه مذهباً في الحياة ودعوا إليه.

[1] محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص167.

3/ جاء هذا الشعر عبارة عن حِكَم متفرّقة نتيجة للتأمّل والتّجربة، فجاءت صادقة تتعلّق بالموت وما بعده.

الشعر الصّوفي أداة للتّعبير الصّادق المحلّق في عالم الرّوح، فكان نبعاً يرتوي منه الصّوفية.

ساق ابن قنفذ القسنطيني أبياتاً من الشعر في رحلته لشعراء آخرين على سبيل المِثَل والاعتبار، عَقِبَ ترجمته لكلّ شيخ حسب الحالة التي تقتضي ذلك سالكاً طريق ابن الزّيّات التادلي[1] في منهجية كتابه "التشوف إلى رجال التصوف "[2]، آخذا عنه أكثر الأبيات التي ورد ذكرها في رحلته.

الوصف في رحلة ابن قنفذ:

إنّ الوصْفَ عنصرٌ مهم في أدب الرّحلة، اعتمد عليه أغلب الرّحالة في نقل مشاهداتهم وارتساماتهم عن كلّ ما عاينوه. والوصف عنصر ضروري لابُدّ منه، ولا يمكن أن يستغني عنه الرّحالة، فهو الذي يضفي على الرّحلة نكهة خاصة تشدُّ إليها القارئ، ومن دونه تصبح لا قيمة لها. وابن قنفذ كغيره من الرّحالة اعتمد عليه في " أنس الفقير وعزُّ الحقير ". إلاّ أنّ الوصف الذي ميّز رحلته اختلف عن الوصف في رحلة ابن بطّوطة الذي صوّر كلَّ ما هبّ ودبّ. أمّا ابن قنفذ فقصَر الوصف في رحلته على التّعريف بأعلام التّصوف، والترجمة لهم بدءً بأبي مدين شعيب ووصولا إلى بعض أعلام القرن الثامن للهجرة، ومن وصفه الشائق لأبي مدين شعيب:" كان زاهداً في الدنيا عارفاً بالله تعالى، وخاض بحاراً من الأحوال، ونال من المعارف الربانية الآمال. ومقامه الخاص به الذي لا يلحقه فيه أحد: التوكل على الله تعالى، وكان له بسط وقبض، فبسطه بالعلم، وقبضه بالمراقبة"[3]. ومن وصفه جدّه لأمّه يوسف بن يعقوب البويوسفي:" كانت ولادته في عام ثمانين وستمائة ووفاته في عام أربعة وستين وسبعمائة وتوفي وهو جالس في مرضه يمسح بيده اليمنى في التيمم لصلاة العصر، ودفن بزاويته بجنب أبيه وحضر جنازته من لا

---

[1] يوسف بن يحيى بن عيسي بن عبد الرحمن التادلي: عرف بابن الزيات، قال الحضرمي: هو الشيخ الفقيه القاضي الأديب مؤلف كتاب التشوف إلى رجال التصوف، وله تآليف في صلحاء المغرب لم يدخل الأندلس، صحب أبا العباس السبتي ولقي ابن حوط الله والسلالقي، وشرح مقامات الحريري، وحدث بكتابه التشوف الأستاذان الفاضلان أبو القاسم ابن الشاط وابن رشيد عن قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عليّ الشريف عنه إذناً، توفي قاضياً بدقداق سنة 627هـ أو سنة 628هـ. ترجمته في:

– أحمد بابا التنبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الدّيباج، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1989، ص626 – 627.

– محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، ص185.

[2] تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997.

[3] ابن قنفذ، أنس الفقير وعزّ الحقير، ص45.

يحصى عدده. وأعلمهم بِسَنَة موته قبل ذلك بتدريج في التعريف مرة بعد أخرى"[1]. ومن وصفه لأبي الهادي مصباح الصُّنهاجي الصوفي أنّه يحفظ جملة من مسائل الفقه، ويؤول ما يسمع من المسائل العلمية إلى معنى التصوف بالوجه المستحسن، وكان كثير الصلاة، والذكر، وله أوراد مقدرة.

وكان ابن عاشر فريداً في الورع مُيسَّراً عليه في ذلك أتم تيسير، كثير النفور من النّاس. تخرّج على يده تلامذة صلحاء أخيار. جعل كتاب " إحياء علوم الدين " نصب عينيه، واتّبع ما فيه بِجِدٍ واجتهاد، وصدق وانقياد.

ومن وصفه للشّيخ أبي عبد الله محمد المسفر: "شهير الذكر، رفيع القدر، رقيق القلب، غزير الدمع"[2]. فهذه الأوصاف لهؤلاء المتصوفة اعتمد فيها صاحبها على البساطة، والتلقائية في الوصف، فلم يتكلف فيها البيان والمحسنات البديعية، ولهذا جاءت جزلة توخى فيها الكلمات السهلة، والعبارات الملائمة التي تصورهم على حقيقتهم، وعلى ما هم عليه من زهد وورعٍ وخشوع.

اعترف ابن قنفذ، في ثنايا كتابه، بقيمة المغرب الأقصى الذي هو أرض خصبة للأولياء والصلحاء وأقطاب التّصوف، فوصف ذلك قائلاً:" وقد سألت عن جملة الطوائف التي هي بالمغرب الأقصى في الأرض التي تُنْبت الصالحين كما تنبت الكلأ، فوجدتها متعددة باعتبار تعدد الأشياخ"[3]. فالمغرب الأقصى أرض طيّبة أنجبت عديد من الأولياء الصالحين، وعباد الله الأخيار، فتعددت فيها الطوائف بتعدد الأشياخ، وكان لكلّ شيخ طلبةٌ ومريدون يتّبعونه، ويتعلمون منه الزهد والتّصوف، وهي ستة طوائف: الشعيبيون والصنهاجيون والماجريون والحُجَّاج والحاحيون والغماتيون.

وفي هذه المنطقة اجتمع الرّحالة بعلمائها وأوليائها الصالحين، وانتفع بلقائهم، والجلوس معهم، والتبرّك بدعائهم؛ وقد وقع هذا الاجتماع على ساحل البحر المحيط جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنفطر" وهي أرض مستوية طولها مسيرة أربعة أيام وكذلك عرضها، ووجدت فيها خمسة وعشرين مدرساً...وليس بها نهر ولا عين إلا آبار طيبة "[4].

استمر ابن قنفذ في وصف هذا الاجتماع الذي عُقِدَ في شهر ربيع الأول، سنة تسع وستين وسبعمائة، حضره كثير من الفضلاء والعلماء.

---

[1] ابن قنفذ القسنطيني، رحلة أنس الفقير وعزّ الحقير، ص83.

[2] المصدر نفسه، ص94.

[3] المصدر نفسه، ص106.

[4] المصدر نفسه، ص106.

اغتنم أصحاب العلل والأمراض المزمنة كالمقعدين عن الحركة هذه الفرصة، فتزاحموا على حِلَقِ الذكر، وكلٌّ منهم تضرع وتوسّل إلى المولى عزّ وجلّ لصلاح جسده، وبرئه من مرضه. ومن العلماء الذين لقيّهم بهذا الاجتماع الشّيخ أبا الحسن بن يونس الصُّنهاجي الذي لا تكف له دمعة، إذا سمع آية من القرآن الكريم أو حديثاً من أحاديث النبيّ صلى الله عليه وسلم أو بيتاً من الشعر أو كلمة صوفية. وكان الشّيخ أبو عبد الله محمّد الجناتي من أهل العلم والصلاح والزهد، كثير المطالعة لكتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وما كان فيه سير الصالحين، ولباسه إمّا عباءة من تليس أو جبة من صوف، ولا يغطى رأسه إلاّ في أيام البرد.

كان هذا وصف ابن قنفذ للعلماء والأولياء الذين لقيّهم، فصورهم بما تميّزوا به من علم وصلاح وعفاف، كما وصف لباسهم الذي كان في الغالب مرقعة وجبة من صوف أو عباءة من تليس. فهم لا يعبؤون بالظاهر، وإنّما يركزون على الباطن، والعمل القويم، وسلوك نهج الشّريعة الإسلامية التي هي أساس العبادة، والتقوى للتقرّب إلى المولى تبارك وتعالى.

هكذا يمضى ابن قنفذ في وصف بقية الأولياء والمشايخ الذين ترجم لهم، مُتَتّبعاً النمط نفسه تقريباً، واصفاً زهدهم، وورعهم، ولباسهم، وأحيانا قُوتَهم الذي يعيشون عليه. فوصف مثلا طريقة عيش أحد المتصوفة، يقول:" وعيشه من حبك البرانيس في بعض الأوقات...وقال لي: " ليس لي عادة في غذاء أو عشاء وإنما إذا احتجت أكلت من غير توقيت "[1]. أمّا الشّيخة مؤمنة التلمسانية فكان قُوتُها من غزل يديها، ولا تقبل من أحدٍ شيئاً.

وكان أبو يعزى يقتات ممّا نبت في الأرض، ويأكل هدب الدفلى[2]، ويطعم الزائرين اللحم والعسل. ومن وصفه الشائق قوله عن قبر الشّيخ أبي مدين شعيب بمنطقة العُبّاد في تلمسان:" وقبر الشيخ أبي مدين – رضي الله عنه – بالعباد معهود مشهور، وحوض للزائرين. رأيت من قبور الأولياء كثيراً من تونس إلى مغرب الشمس ومنتهى بلد آسفى فما رأيت أنْوَرَ من قبره ولا أشرق ولا أظهر من سره وليس الخبر كالعيان. والدعاء عنده مستجاب، قاله الأعيان"[3].

---

[1] ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعزُّ الحقير، ص121.

[2] – الهَدَبُ: أغصان الشجر. ينظر معجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004، ص976.

– الدفلى: نبات مرّ زَهْرُه كالورد الأحمر، وحَمْله كالخروب، ويتخذ للزينة. ينظر معجم الوسيط، ص290.

[3] ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعزُّ الحقير، ص149.

اعتمد عنصر الوصف في رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير " على السهولة، والبساطة في الأداء أبان ضعف لغة ابن قنفذ القسنطيني، ومع ذلك فإنّه صور الأعلام المترجم لهم تصويراً صادقاً، لا تكلّف فيه ولا تصنع.

لم يُعنَ ابن قنفذ، كغيره من الرّحالة بجميع النواحي الاجتماعية، والاقتصادية، والجغرافية، وإنّما جعل جُلَّ اهتمامه منصباً في التّعريف بأقطاب التّصوف، ورجاله وشيوخه، فوصف زهدهم، وخشوعهم، وطريقة تعاملهم مع النّاس، وحفظهم للعلوم الإسلامية، وتطبيقهم لها.

الحوار في رحلة ابن قنفذ:

الحوار في اللغة مأخوذ من الفعل حار بمعنى رجع[1]، كما قال جلّ وعلا: ﴿ **إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ**﴾ [سورة الانشقاق، الآية 14]، يعني ظن أن لن يرجع إلى الحياة.

وكلمت فلانا فما أحار جوابا وما سمعت له حِوارا ولا حويرا، وحاورت الرجل محاورة وحِوارا وحويرا إذا كلمته فأجبته[2]، والتحاور: التجاوب.

إنّ الحوار بهذا المعنى يعنى مراجعة الكلام، ولا يكون الحِوَارُ حِوَاراً حتى يكون بين طرفين أو أكثر.

وفي الاصطلاح هو:" نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر أحدهما دون الآخر "[3]. فالحوار لا يكون إلاّ بين طرفين أو أطراف متعددة. وإلاّ لا يصح أن يطلق عليه حواراً.

يُعدُّ الحوار عنصراً من عناصر أدب الرّحلات، وبه تمتاز، إضافة إلى السرد والوصف، فالحوار من أدواتها الرئيسة. وفي بعض الأحيان ينقل الرّحالة بعض المشاهد الحوارية على سبيل نقل كلّ ما شاهده، وسمعه.

كان الحوار حاضراً في رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير "، ويمكن التمثيل لذلك ببعض النماذج، منها الحديث الذي دار بين أبي مدين شعيب، وشيخه أبي الحسن ابن حِرْزِهم:" قلت (أبو مدين شعيب): من هذا الشيخ؟ فقيل لي: أبو الحسن ابن حِرْزِهم.

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص217.

[2] ابن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، دار المعارف، حيدرأباد، ط1، 1344هـ، ج2، ص146.

[3] أبو معاذ موسى بن يحيى الفيفي، الحِوَار أصوله وآدابه، وكيف نربي أبناءنا عليه؟ تقريظ: عبد الغفور عبد الحق البلوشي، دار الخضيري، المدينة النبوية، 1427هـ، ص30.

فلما فرغ دَنوْتُ منه وقلت له: حضرت مجالس كثيرة فلم أثبت على ما يُقال؛ وأنت كل ما سمعته منك حفظته، فقال لي: هم يتكلمون بأطراف ألسنتهم فلا يُجاوز كلامهم الآذان وأنا قصدت الله بكلامي فخرجَ من القلب"[1]. ومن ذلك أيضا حكاية بعض الصالحين الذي رأى النّبيَّ صلى الله عليه وسلّم في منامه ومعه أبا مدين شعيب وأبا حامد الغزالي فدار بينهما حوار بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلّم، " فسأل أبو حامد أبا مدين قائلاً: " ما الروح؟ فقال له أبو مدين: المعرفة.

قال: فما روح المعرفة؟ قال: اللذة.

قال: فما روح اللذة؟ قال: نظرة إليه "[2].

أورد ابن قنفذ المشاهد الحوارية عندما سرد حكايات، وأخبار الأعلام المترجم لهم في رحلته، حيث عرّف بهم، وذكر ما دار بينهم من كلام وحوار في مسائل الدّين وأمور التّصوف، أو حصول كرامة من كرامات كما حدث مع الشّيخ أبي مدين شعيب الذي أخبره الشّيخ أبو يعزى بأنّه ستهدى له جارية حبشية يكون له منها ولد. وبالفعل أُهديت له جارية وتزايد له منها ولد. ولكنّ الشّيخ اغتم منها بعد ذلك، وعَرَف تلامذته سبب اغتمامه، فجرى بينه وبين عبد الرزاق الجزولي حوارٌ موضوعُه زواجه من الجارية الحبشية، وتربية الولد والعناية به، وأنّه سيكون بين أيدي أمينة، وصدر رحب حنون.

تكرر الحوار بكثرة في رحلة ابن قنفذ القسنطيني، وخاصة الذي دار بين المشايخ وأولياء التّصوف. فمن ذلك على سبيل المثال الكلام الذي دار بين أبي مدين شعيب والشّيخ أبي عليّ عمر الصباغ الذي رأى ثلاثاً أو أربعاً من حور العين يلعبن:" فلما سلمنا من الصلاة قلت للشيخ أبي مدين ما رأيت فقال: وهل رأيتهن؟ قلت: نعم، قال لي: أعد صلاتك فإن المصلى يناجي ربه وأنت إنما ناجيت الحور العين"[3].

كما وظّف في رحلته نماذج من الحوار دلّ على نوعية تعامل السّلاطين مع الأولياء الصالحين، ونوعية المطالب التي يرغب الأولياء في تحقيقها، وبلوغ مرامها. نأخذ نموذجاً على ذلك عندما ذهب الشّيخ أبو الهادي مصباح الصّنهاجي إلى السُّلطان أبي الحسن المريني يطلب منه الانسحاب والعدول عن فكرة الاستيلاء على بلاد إفريقية، والرجوع إلى المغرب الأقصى، لكن السُّلطان رفض هذا المطلب، وتلطّف إلى الشّيخ بأن يغير الطلب.

[1] ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعزّ الحقير، ص46.

[2] المصدر نفسه، ص50، 51.

[3] المصدر نفسه، ص74.

كان للمتصوفة مكانة في نفوس السّلاطين، فقدروهم، والتمسوا منهم البركة والدعاء، وتلطّفوا إليهم وسعوا إلى تحقيق مآربهم، إلاّ التي لم يستطيعوا عليها مثلما حدث مع السّلطان أبي الحسن المريني الذي لم يقدر على تحقيق طلب الشّيخ أبي الهادي مصباح الصّنهاجي لأنّ فكرة توحيد المغرب بالقوة تحت سلطته كان هاجِسَه الوحيد، وأمله الذي سعى إليه جاهداً مستخدما لتحقيق ذلك كل السُّبل والطرق.

ولكن في الأغلب الأعم عمل السّلاطين جاهدين على إرضائهم والتماس بركاتهم، فجدُّ المصنف يوسف بن يعقوب الملاري مثلا تمتع بمكانة عالية في نفوس الأمراء الحفصيين؛ هذه المكانة استغلها في قضاء حاجات النّاس.

ومن نماذج الحوار، أيضا، في رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير" ذلك الذي جرى بين الشّيخ أبي مدين شعيب ورفقائه، عندما أبدوا انزعاجهم من طلب سلطان الموحدين له، وسعيهم إلى ترحيله إلى مراكش، وتكليف والي بجاية بحمله على خير محمل، فقال لهم الشّيخ بأنّ مَنِيّته قُدرت له بغير هذا المكان، فقيّض الله له من يحمله إلى مكان الدّفن برفق، وعندما وصل إلى خواص تلمسان قال لمرافقيه:" ما يقال لهذا المكان؟ فقيل له: العباد. فقال: مليح للرقاد! "[1].

كان عنصر الحوار، إذاً، حاضراً في الرّحلة بشكل قوي لافت للنظر، فهو عنصر ضروري من العناصر المكوّنة لأدب الرّحلة والمميّزة لمضمونها وأسلوبها، فلأدب الرّحلة سمات خاصة تميّزه عن باقي الفنون الأدبية النثرية الأخرى.

هذه المشاهد الحوارية التي نقلها الرّحالة كشفت عن طبيعة تعامل النّاس مع بعضهم البعض أو مع السّلاطين، وكذلك طريقة تعامل الحكام مع عباد الله الصالحين، والمشايخ الكبار، وأيضا، طريقة تعامل الرّحالة مع غيره من النّاس، وتعايشه معهم.

نقل هذا الحوار كثيراً من المعلومات القيّمة من خلال تحاور شخصين أو أكثر عن أمر من الأمور، قد يكون دنيوياً مثل المعاملات الاقتصادية ومنح الأعطيات؛ وقد يكون دينياً مثل حصول الكرامات والمكاشفات، وهو كثير في رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير ".

للحوار أهمية كبيرة، فهو من وسائل الاتصال الفعّالة، ومطلب إنساني يحتاجه كلّ فرد للاندماج في الجماعة، والتواصل مع الآخرين، ومشاركتهم، والتفاعل معهم. كما يعكس الحوار الواقع الحضاري والثقافي للأمم والشعوب المختلفة.

[1] ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعزُّ الحقير، ص147.

كانت رحلة ابن قنفذ القسنطيني كتاباً في تراجم العلماء والفقهاء المغاربة، وبخاصة المالكية منهم، فأفاض في أخباره من خلال جولاته وانسياحه داخل مدن المغرب وأريافه، راصداً حياة الصوفية وتجمعاتهم بتفصيل ودقة، فترجم للمشاهير منهم بدءًا بأبي مدين شعيب في القرن الخامس للهجرة وصولاً إلى القرن الثامن عصره.

5/ رحلات العهد العثماني:

أسهم الجزائريون في أدب الرّحلة إسهامات واضحة، وبخاصة في العهد العثماني، حيث لمسنا عدّة دوافع كانت وراء الكتابة والتأليف، ولكن معظمها كان مقصدها الحجاز وهدفها، فكتب الجزائريون في هذا النوع رحلات نثرية، وشعرية تنبئ عن شوقهم، ورغبتهم الملحة لزيارة الأراضي المقدّسة، والوقوف على تربتها الطاهرة.

حري بنا، ونحن في هذا المقام، أن نتحدث عن الرّحلات الحجازية الشعرية (ونقصد بها تلك الرحلات التي نظمها أصحابها شعرا) التي كتبها أصحابها في وصف الطريق إلى الحجاز، وأدائهم لمناسك الحجّ.

من ذلك قصيدة من الشعر الملحون لمحمّد بن مسايب التلمساني[1] التي يقول فيها:

يا الوَرشان[2] اقصد طيبة وسلم على الساكن فيها

يا الورشان اقصد طيبة وزور وافقد مرسم شيبة

وصف في هذه القصيدة المحطات التي مرّ بها، والطريق الذي سلكه الحجاج من تلمسان إلى مكّة المكرّمة، وما ميّز هذه الرّحلة أنّ صاحبها لم يعن بوصف الأوضاع العامة للمدن والقرى التي حلّ بها، وإنّما وصف الأماكن التي رأى أنّها جديرة بالوصف، وهي المزارات والزوايا المشهورة؛ فقد زار ابن المسايب قبر أبي مدين شعيب بمنطقة العباد في تلمسان، وضريح الشيخ السنوسي صاحب الطريقة السنوسية، وأحمد زروق بطرابلس.

كما سجل طريق رحلته، فقد انطلق من تلمسان، ومرّ بجبال تسالة، فواد التليلات ثمّ مليانة، ومتيجة، والبليدة فالجزائر ثمّ قسنطينة فتونس، ومصر وصولا إلى مكّة كرمها الله.

وعند وصوله إلى البقاع المقدّسة تحدث عن مناسك الحجّ، وشعائره، يقول بن المسايب:

ادخل من وَاد مكـة باشر البيت وقابلها

---

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ج2، ص389.

[2] طائرٌ من الفصيلة الحماميّة، أكبر قليلا من الحمامة المعروفة، يستوطن أوربة، ويهاجر في جماعات إلى العراق والشام، ولكنّها لا تمرّ بمصرُ. ينظر: المعجم الوسيط، مصر، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص1025.

طُف يا طيري سبع أطواف بالقدم وتبّع الإشراق

وانتبه يا كامل الأوصاف للحَجر واستمسك بِيها

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هناك شاعرين آخرين من تلمسان اشتهرا بنظم الرّحلات الشعرية بالملحون، ونقصد بذلك **ابن التريكي والزناقي** وهما معاصران لابن المسايب.

وهناك قصيدة، أخرى، لعبد الله بن عمر بن موسى البسكري[1] من علماء المالكية، شاعر وأديب. رحل إلى المشرق، وحجّ ثمّ استقر بالمدينة المنوّرة. يقول في مطلعها:

دَارُ الحَبِيبِ أَحقُّ أنْ تَهْوَاهَا ونَحِنُ من طرب إلى ذِكراها

وهي قصيدة طويلة وصف فيها مكّة المكرّمة، والمدينة المنوّرة.

كما ألف عبد الرحمن بن خروب المجاجي[2] رحلة منظومة فصيحة، وصف فيها الطريق بدقة متناهية من مجاجة بالشلف إلى مكّة المكرّمة، فيذكر أخبارا فريدة عن البلاد التي دخلها، يقول في مطلعها:

نشق الفيافي فدفدا بعد فدفد جبالا وأوعارا وأرضا وطية

زار الأماكن المقدّسة بالمدينة: دار النبي محمّد صلى الله عليه وسلم، والمسجد النبوي، ومقام الصحابة والخلفاء والتابعين.

وبعدَ زِيارة النبي مُحمّــد ومن انتمى لهُم بأحسنِ سيرةٍ

مع الحسَنِ أيضا كذلك أمُّه وأصحابِهِ والتَابعِينَ الأجلّــةِ

وفي هذا المجال، أيضا، كتب الشاعر أبو عثمان بن سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني[3] قصيدة مشهورة " بالعقيقة " نظمها في مدح الرّسول صلى الله عليه وسلم، ووصف البقاع المقدّسة بالحجاز سنة 1008هـ.

ونظرا لأهمية هذه القصيدة فقد لاقت اهتماما كبيرا من طرف الباحثين والمؤلفين الأمر الذي جعلهم يقدّمون لها شروحا وتعاليق كثيرة أضافت إليها معلومات كثيرة، ومن ذلك شروح ناصر أبو راس

[1] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص43.

[2] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص224؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص286.

[3] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص68.

المعسكري الذي يذكر في رحلته بأنّها سبعة؛ منها:" الدرة الأنيقة في شرح العقيقة" و"طراز شرح المرداسي لقصيدة المنداسي" و"الحلل السندسية في شرح القصيدة السعيدية" و"الجمان في شرح قصيدة أبي عثمان" و"نظم الأديب الحسيب الجامع بين المدح والنسيب والتشبيب""[1].

يصف أبو القاسم سعد الله أسلوب هذه القصيدة التي تمتاز بتضمنها لأساليب بلاغية وفنية تظهر براعة صاحبها وتفوّقه بقوله" والعقيقة قصيدة في مدح الرسول وصحابته، كتبها المنداسي بالعامية الفصحى أو الفصحى العامية، وهي ليست قصيدة بسيطة، لا في لغتها ولا في معانيها، لأنّها احتوت على تراكيب غريبة، وعلى تواريخ وحوادث تحتاج إلى توضيح، واطّلاع واسع، وقد سلك الشاعر مسالك بلاغية معقّدة، ومسالك لغوية أكثر تعقيدا"[2].

يبدو أنّ مقصد المنداسي في كتابته لهذه القصيدة بالعامية هو تقريب معانيها من العامة.

وتعدّ قصيدة محمد بن منصور العامري التلمساني التي فرغ منها سنة 1162هـ، وهي قصيدة همزية متوسطة الجودة وصف فيها مراحل رحلته من تازة حيث كان يقيم إلى الحرمين الشريفين ثم إلى الشام، من أبرز القصائد المكتوبة بالفصحى، وقد ابتدأها بقوله[3]:

أَزْمَعَ السَيْرُ أَنْ دَهَت أَدْواءُ لشَفِيعُ الأنَامِ فَهُوَ الدَواءُ

وصفوة القول تتجلى في أنّ الرّحلات الشعرية المكتوبة بالجزائر كانت قليلة إذا ما قيست بالرحلات الحجازية النثرية.

[1] أبو راس المعسكري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص181.

[2] أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ص180.

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص402.

6/ الرّحلات النثرية:

تعدّ الرّحلات النثرية من أكثر الرّحلات وفرة بالجزائر لأنّ" النثر هو الموطن الطبيعي للرّحلة"[1]. فهو أقرب إلى الواقعية وأنسب لعرض الحقائق وهو الأمر الذي ينسجم مع طبيعة الرّحلة، التي هي في حقيقتها إعادة سرد للواقع، ونقل له بكلّ تفاصيله.

لقد عرف التراث الجزائري كتابة الرّحلة بصورة واسعة خلال العصر العثماني؛ فقد توجه الجزائريون إلى المشرق والمغرب العربيين.

وانبرى الخاصة منهم ممن يجدون في أنفسهم شوقا إلى التسجيل، ورغبة في كتابة ما تتميز به رحلاتهم من أحداث ومفاجآت، يتحدثون عن أنفسهم وعن الوقائع التي واجهوها، وأحوال لقاءاتهم للشيوخ والاستفادة منهم، وإن اختلفت هذه الرّحلات فمنها المنظومة ومنها النثرية ومنها الطويلة والقصيرة البرية والبحرية.

أ/ الرّحلات العلمية:

خرج الجزائريون من مدنهم طلباً للعلم، والاستزادة منه، ولقاء الشّيوخ، والعلماء بعد استكمال الأخذ عن مشيخة المنطقة، فسعوا إلى طلب العلم من: تونس، والقاهرة، والمدينة المنوّرة، ومكّة المكرّمة، وبيت المقدس، ودمشق،وبغداد، والمغرب الأقصى، وغيرها من المراكز الإسلامية، وفي هذا الصدد قال ابن خلدون في مقدمته الشهيرة:" الرِّحْلَةُ لاَبُدَّ مِنْهَا فِي طَلَبِ العِلْمِ لاكْتِسَابِ الفَوَائِد وَالكَمَالِ بِلِقَاءِ المشَايِخِ وَمُبَاشَرَة الرِّجَالِ "[2].

فالرّحلة تتيح الفرصة للقاء أهل العلم بالمشايخ على اختلاف وجهاتهم ومشاربهم، فابن خلدون هنا أكد أنّ العلم لا يكون إلاّ بالرّحلة، والسعي وراء المشايخ، والإلمام بالعلوم المختلفة.

حثّ القرآن على طلب العلم، فهو من النعم التي أكرمنا الله بها، وجعله الرّسول صلى الله عليه وسلّم باباً من أبواب الجنّة، ومُوصلاً إليها فقال:" مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ بِهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى

[1] حسين نصّار، أدب الرّحلة، ص103.

[2] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة (وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، ضبط المتن: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001، ج1، ص745.

الجَنَّةِ"[1]، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحثُّ على الرّحلة في طلب العلم، والاستزادة منه؛ حيث ضَرَبَ المولى عزّ وجلّ مثلاً من أروع الأمثلة في طلب العلم برحلة موسى مع الخضِر عليهما السلام ليتعلم منه في بضع آيات من سورة الكهف. [سورة الكهف، الآية (60 – 70)].

قَصَّ القرآن في هذه الآيات قصة موسى عليه السلام، وهو يرتحل في البحر ليلتقي الخضِر عليه السلام، فيتعلم منه علما:" فموسى عليه السلام بالرّغم من بلوغه تلك المرتبة العالية عند الله تعالى واختصاصه بكلامه يرحل إصرارا على لقاء العبد الصالح بغض النظر عن المسافة والمشقة وطالبا بأدب وسائلا إياه أن يعلّمه مما علّمه الله تعالى واشتراطه بعدم الاستفسار مما يراه مخالفا لشريعته مقابل ذلك يفسر له ما غمض عليه ويمضى السرد القرآني إلى أن يفترقا"[2]. فسيّدنا موسى عليه السلام بالرّغم من سموّ قدره، ورفعة مكانته رحل إلى مكان بعيد لطلب العلم، وسلك السبل الموصلة إليه،والرّغبة في طلب العلم تكون بالرّحلة الطويلة، وتحمل المشاق والمعاناة، وتتطلب بحثا متواصلا ونَفَسا طويلا، وعزيمة قوية.

خير من مثّل الرّحلة العلمية في الجزائر: **ابن حمادوش**[3] الذي أطلق على رحلته اسم:" **لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال**".

---

[1] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البُخاري، بحاشية السندي، دار المعارف، بيروت، 1978، ج1، ص24.

[2] عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين – دراسة تحليلية مقارنة –، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص34.

[3]هو عبد الرزاق بن محمّد بن محمّد بن محمّد، المعروف بابن حمادوش. ولد سنة 1695م في مدينة الجزائر، وتوفي سنة 1785م.

تلقى تعليمه الأولي في مدينة الجزائر. حصّل بها قدراً من العلوم كالفقه، والنحو، والأدب، والتاريخ، والطب، والرياضيات، كما تثقف، أيضا، على يد علماء تونس والمغرب والمشرق.

تقلّد مسؤوليات دينية عديدة. لما بلغ العشرين من العمر رغب أن يجوب العالم الإسلامي، فبدأ بالحجّ، ثمّ قام برحلة أخرى إلى المغرب الأقصى حيث قضى فيه سنوات طوال، فكان هدفه في هذه المرّة طلب العلم والتجارة.

ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص365.

ب/ الرّحلة الرسمية:

يطلق عليها، أيضا، الرّحلة السفارية، يقوم بها شخص مكلّف بمهمّة ما يبعثه فيها أحد الحكام لغرض من الأغراض، أو قد يرافق ذلك الشخص الحاكم بتكليف منه ليدوّن له مجريات الرّحلة، ويشيد بانجازاته وأعماله.

1/ رحلة محمّد الكبير(باي الغرب الجزائري) إلى الجنوب الصحراوي الجزائري لأحمد بن هطال[1] التلمساني:

تصنف هذه الرّحلة ضمن الرّحلات الرّسمية سجل فيها ابن هطال أبرز أحداث الرّحلة بأمر من الباي؛ وقد كتب رحلته في أثناء السفر،كما صرّح هو بذلك " قيّدت هذه الأوراق في أثناء السفر"[2].

وصف الكاتب في هذه الرّحلة الحملة العسكرية التي قادها محمّد الكبير بالجنوب الصحراوي لإخضاع القبائل المتمردة عن الحكم العثماني، وإجبارهم على تقديم الجزية، وتأمين الطرق التجارية بين شمال الغرب وجنوبه.

كان خط سير الرّحلة من معسكر إلى الأغواط. تحدث خلالها الكاتب عن دوافع، وأسباب الرّحلة، كما تضمنت أخبار جغرافية، وسياسية، وعسكرية، وأدبية هامة، فلم تخل رحلته من توظيف للشعر، وكان كلّه في مدح الباي محمّد الكبير. أمّا في بداية الرّحلة فتحدث الكاتب عن فضل علم التاريخ، وغرضه من تقييدها خدمة للباي.

انتهت الرّحلة بالعودة إلى معسكر يوم الأربعاء 28 ربيع الثاني سنة 1199هـ.

---

[1] هو أبو العباس أحمد بن محمّد بن محمّد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني، وهو شخصية هامة في تاريخ الجزائر لكّنها مغمورة، فهو أديب، ودبلوماسي، وسياسي، بزغ نجمه في عهد الباي محمّد بن عثمان الكبير، ومن أبرز آثار أحمد بن هطال التلمساني مرافقته للباي محمّد الكبير طوال رحلته أو غزواته لقبائل جنوب الهضاب العليا بالقسم الغربي للجزائر سنة 1199هـ.

[2] أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير" باي الغرب الجزائري" إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح: محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1969، ص72.

2/ رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي[1]:

رحلته غير حجازية على الرّغم من أدائه لمناسك الحجّ، فتحدث عنها، ولكن بصورة مختصرة حيث ذكر قابس، وجزيرة جربة، والدرعية (الجزيرة العربية). أمّا محتوى الرّحلة فجاء عن أخبار الصحراء الجزائرية من مدن، وقرى مثل: الأغواط، تجمعوت، عين ماضي، جبل عمور، متليلي، وادي ميزاب، المنيعة، ورقلة، تيميمون، عين صالح...، وتحدث عن بعض العادات، والتقاليد.

قام الأغواطي بهذه الرّحلة بطلب من القنصل الأمريكي لدى الجزائر " وليام هودسون "[2]، وقد كُتبت في حوالي سنة 1242هـ، مع اختلاف في اثباته لهذا التاريخ.

ترجمت هذه الرّحلة إلى اللغة الانجليزية بطلب من القنصل، وترجمت، أيضا، إلى اللغة الفرنسية، وكان اهتمام الفرنسيون بها أكثر من اهتمام الأمركيين.

ج/الرّحلة الحجازية:

اختلفت دوافع الرّحيل، وتنوّعت مادة الرّحلة، ولعلّ الدافع الأول إليها هو دافع ديني قبل كلّ شيء، فتوجهوا برحلاتهم صوب المشاعر المقدّسة بمكّة المكرّمة، والمدينة المنوّرة، معتمرين أو حاجّين إلى بيت الله الحرام، وزائرين مسجد رسّول الله محمّد صلى الله عليه وسلّم بالمدينة المنوّرة.

كان الحجّ معروفاً منذ الجاهلية؛ إذ كان العرب يحجّون كلّ سنة إلى مكّة المكرّمة، وبعد مجيء الإسلام طُهِّرت الكعبة الشّريفة من الأصنام، وأصبحت بيت الله الحرام، الذي يقصده النّاس من كلّ فجّ عميق، وهو الرُّكن الخامس من أركان الإسلام، وفريضة واجبة الأداء على كلّ مسلم مستطيع لقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** ﴾ [سورة آل عمران، الآية 97]، وقوله أيضاً: ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾

---

[1] لم يكن الحاج ابن الدين معروفاً في عصره. كان قليل التعلم كثير الاطلاع.

ينظر: الحاج ابن الدين، رحلة الأغواطي في شمال أفريقيا والسودان والدرعية، تح: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية، الجزائر، 2011، ص80.

[2] جاء هودسون إلى الجزائر سنة 1825م لكي يساعد شيلر في مهمته كقنصل عام لبلاده في الجزائر، وكانت خبرة هودسون باللغات الشرقية هي التي أهلته لهذه المهمة؛ وقد بقي هودسون في الجزائر إلى سنة 1829م.

[سورة البقرة، الآية 197]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾ [سورة الحج الآية 27].

فالحجّ هو قصد مكّة على وجه مخصوص بنية العبادة، وأداء المناسك التي شرعها الله سبحانه وتعالى، والحجّ من أفضل العبادات، وأجلّها قدراً عند الله لأنّه أعظمها مشقّة، تتجلّى فيه صورة السفر، والصبر على طاعة الله .

ألف الجزائريون في الرّحلة الحجازية الكتب الكثيرة، فرصدوا انطباعاتهم ومشاهداتهم، ووصفوا مشاعرهم المتأججة لرؤية الحجاز، والوقوف على تربته الشريفة، ولكن كلّ منهم عبر بطريقته الخاصة، فمنهم من كتب فيها نثرا، ومنهم من نظم فيها شعرا.

ارتبطت الرّحلة بالنثر أكثر من الشعر لأنّ النثر أتاح لأصحابها التعبير بطلاقة وعفوية دون التقيد بشروط معينة، فأتاح لهم تسجيل ما شاهدوه، وسمعوه منذ خروجهم من الجزائر إلى غاية وصولهم إلى أراضي الحجاز مروراً بتونس، وطرابلس، ومصر، وبغداد،ودمشق. فكان السرد والوصف السمتان البارزتان، والمميزتان لهذا اللون الأدبي.

1/ رحلة " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" للورثيلاني[1]:

رحل الورثيلاني إلى المشرق ثلاث مرات لأداء فريضة الحجّ، فكانت حَجته الأولى سنة 1153هـ، والثانية سنة 1166هـ، والثالثة سنة 1179هـ وفيها دوّن رحلته الشهيرة. خرج الورثيلاني في رحلته من الجزائر قاصدا بلاد الحجاز، فمرّ ببسكرة، فتوزر فقابس، ثم طرابلس ليدخل إلى مصر، ومنها إلى مكّة

[1] هو الحسين بن محمّد السعيد الورثيلاني، رحالة، ومؤرخ، وفقيه. ولد في قبيلة بني ورثيلان (بضواحي بجاية)، وبها نشأ وترعرع. أخذ العلم عن والده، وبعض الشيوخ الآخرين. ثمّ رحل إلى المشرق كعادة أي طالب مغربي عندما يستكمل أخذه عن شيوخ منطقته، فتتوق نفسه إلى زيارة المراكز الثقافية المشهورة بها مثل: مصر، والعراق، وفلسطين، والحجاز، حيث أخذ عن الشيخ أحمد بن الحسن الخالدي الجوهري، ومحمّد ابن محمّد التونسي الشهير بالبليدي، والحفناوي، وعمر الطحلاوي. ينظر: أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة، بيروت، تونس، ط1، 1982، ج2، ص139؛ عادل النويهض، معجم أعلام الجزائر، ص340.

المكرّمة، وفي كلّ محطة من هذه المحطات كان يقف عندها بالوصف المستفيض، فنجده يصف أهلها، وعاداتهم، وتقاليدهم.

كتب هذه الرّحلة عندما ذهب للحجّ سنة 1179هـ،وتحدث فيها عن ما شاهده من أماكن وبلدان، ومن التقى بهم من العلماء، والفضلاء، والأدباء، والفقهاء، والمحدثين، والمفسرين حتى قال عنها: " أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي، فإنّها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار"[1].

ذكر الرّحالة سبب تدوينه للرّحلة، وهو ما رآه في الحجاز، وشغفه به " فإنّي لما تعلّق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والرّباع، والقفار، والديار، والمعادن، والمياه، والبساتين، والأرياف، والقرى، والمزارع، والأمصار، والعلماء، والفضلاء، والنجباء، والأدباء من كلّ مكان من الفقهاء، والمحدثين، والمفسرين الأخيار، والأشياخ العارفين والإخوان المحبين"[2].

اعتمد الورثيلاني في رحلته الشهيرة على كتب الرّحلات السابقة له كرحلة العياشي، والعبدري، والبلوي، ورحلة ناصر الدرعي الجعفري، كما نقل، أيضا، من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة، ومختصر الجمان في أخبار أهل الزمان، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وغيرها.

2/ رحلة المقري[3] إلى المغرب والمشرق:

اجتاحت المقّري رغبة جامعة لزيارة الأراضي المقدّسة، فخرج إلىالحجّ بعد أن استأذن ملك المغرب، وهو الغالب بالله عبد الله بن مأمون في أواخر رمضان 1027هـ، فسافر في البّر ماراً بالجزائر، وتونس، ومصر التي وصلها سنة 1028هـ، ومنها اتجه إلى بلاد الحجاز التي وصلها في شهر ذي القعدة فأدى

[1] حسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008، ج1، ص12.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص12.

[3] هو أحمد بن محمّد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش، أبو العباس المقّري التلمساني. ولد بتلمسان، وبها نشأ.
تعلّم على يد عمّه سعيد المقري ثمّ انتقل إلى فاس، وجلس في حلقة عليّ بن عمران السلاسي في جامع القرويين الذي اعترف له بالتفوّق، وقوة الحجة والنباهة، وفي هذا الجامع أسندت إليه ولاية الفتوى والخطابة والإمامة.
ينظر: الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص48؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص310.

العمرة، وبقي مجاورا بها حتى موسم الحجّ، فأدى الفريضة، وتوجّه إلى المدينة المنوّرة لزيارة المسجد النبوي، وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعدها عاد المقّري إلى مصر سنة 1029هـ، فأقام فيها نحو شهرين، ثمّ دخل القدس الشريف، والشام؛ وقد تكررت زيارته لمكّة المكرّمة فحجّ خمس مرات، وزار المدينة المنوّرة سبع مرات.

اشتغل المقّري خلال إقامته متنقلا بين مصر، والحجاز، والشام بتدريس العلم، والتأليف حتى وافته المنية سنة 1041هـ.

عالج المقرّي في رحلته[1] أمور عديدة منها ما تعلق بحياته الشخصية في المغرب، وتلمسان، ومصر،والشام، والحجاز؛ فقد تزوج ثلاث نساء: امرأة تلمسانية، ومغربية، ومصرية. أنجبت له الزوجة الثانية بنتا، وكذلك الزوجة الثالثة، ولكنها توفيت بعد عمر قصير، وتوفي له من هذه الزوجة، أيضا، ولده محمّد المكي، فتلقى إثر هذه الحادثة رسائل تعزية كثيرة.

ركز في رحلته على الناحية الثقافية والأدبية، فاحتوت على مراسلات، ومكاتبات بينه وبين بعض الأدباء والفقهاء والعلماء والأمراء الذين تعرّف عليهم في البلدان التي نزل بها، كما ضمت الرّحلة في ثناياها قصائد، ومقطوعات شعرية بعضها للمؤلف، وبعضها الآخر لأدباء عصره.

لم يعن المقّري كغيره من الرّحالة بالناحية الجغرافية، والاقتصادية للبلدان التي حلّ بها، فلم يقدّم وصفاً لها، وهذا راجع إلى ميولاته العلمية، وعنايته بالناحية الثقافية أكثر لأنّها كانت شغله الشاغل.

[1] أبو العباس أحمد المقري، رحلة المقّري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004.

3/ رحلة نحلة اللبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب لابن عمار[1]:

ألف رحلته المشهورة بنحلة اللبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب، لكّنها مفقودة لم يصلنا منها سوى القسم الأوّل، وهو الذي أطلق عليه اسم المقدمة. قسم ابن عمار رحلته إلى ثلاثة أجزاء الجزء الأول مقدمة، والجزء الثاني غرض مقصود، والجزء الأخير خاتمة.

وصف في المقدمة شوقه للأراضي الطاهرة بالحجاز، فبدأ كتابه بقوله:" يقول العبد الفقير المضطر لرحمة ربه المولى القدير مثقل الظهر بالأوزار الراجي عفوه سبحانه أحمد بن عمار...لما دعتني الأشواق النافقة الأسواق إلى مشاهدة الآثار...وأن أهجر الأهل والوطن. شرعت إذ ذاك في المقصود، وأعددت طلسم ذلك الكنز المرصود، وأخذت في أسباب السفر"[2].

بيّن ابن عمار في المقدمة ضرورة الحجّ، فاستشهد بآيات قرآنية، وأحاديث مأثورة، وعبّر عن نيّته في أداء الفريضة، وزيارة قبر الرّسول الكريم، فوصف الديار والأصدقاء، كما عمد إلى الاستطراد فتحدث عن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في الجزائر قديما وحديثا، وكذا عادة الأندلسيين في هذه المناسبة، ثمّ ترجم لمجموعة من الشعراء والأدباء من أهل بلده، وغيرهم ليختمها بقطع شعرية لشعراء مغاربة ومشارقة في وصف الورد والنرجس، ونحو ذلك.

أما القسم الثاني من رحلته فهو الغرض المقصود أي" ما يحدثه السفر إلى الإياب وحط الرّحال"[3]، فتصدى في هذا الجزء إلى وصف مراحل سفره من الجزائر إلى الحجاز، والبلدان التي مرّ بها في طريقه، وكلّ مشاهداته.

أمّا الخاتمة فقال عنها:" نشأ عن ذلك بعد السكون وما انضم إليه"[4].

---

[1] هو أبو العباس أحمد بن عمار بن عبد الرّحمن بن عمار الجزائري، أبو العباس ولد حوالي سنة 1119هـ بمدينة الجزائر، من أعلام زمانه. اشتهر في العلوم العقلية والنقلية، واشتغل بالحديث والتاريخ. حجّ في أوائل سنة 1166هـ، وجاور بمكّة المكرّمة إلى ما بعد 1172هـ.

ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص97.

[2] أبو العباس أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1902، ص3.

[3] المصدر نفسه، ص4.

[4] المصدر نفسه، ص4.

4/ رحلة فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته لأبي راس المعسكري[1]:

حجّ مرتين الأولى كانت سنة 1204هـ، والثانية سنة 1226هـ. ألف رحلة أطلق عليها عدّة مسميات منها" عدتي ونحلتي في تعداد رحلتي"، ومنها " فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"[2].

قسمها المؤلف إلى خمسة أبواب تحدث في بابها الأوّل عن ابتداء أمره (طفولته، وتعليمه، وزواجه)، وخصص الباب الثاني لشيوخه، والعلماء الذين التقى بهم في الجزائر، والمغرب، وتونس، ومصر، والحجاز، والشام.

أما الباب الثالث فخصصه لرحلته في المشرق والمغرب، ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى له معهم من مناظرات.

أمّا الباب الرابع فتناول فيه الأسئلة التي وردت إليه من مختلف البلدان، والأجوبة عنها. أمّا الباب الخامس فتحدث فيه عن مؤلفاته، وتصانيفه.

سلك الرّحالة طريق الحجّ العادي لكّنه آثر ركوب البحر؛ وقد اقتدى في رحلته بابن رشيد السبتي، والخطيب بن مرزوق، والعياشي كما صرح هو بذلك، ولكّنه لم يسجل مشاهداته وانطباعاته عن كلّ ما رآه حتى إنّ مشاعره تبدو خافتة عند زيارته للبقاع المقدّسة في الرّحلة.

كما تأثر في كتابه بالسيوطي؛ وقد تحدث عن ذلك عند تبريره تسمية كتابه، فركز في " فتح الإله " على نفسه، وعلى شيوخه الذين أخذ عنهم، والعلماء الذين اجتمع بهم.

من خلال ما سبق يمكن القول إنّ الجزائر عرفت الكتابة الرّحلية في العهد العثماني، فألفوا فيها كتباً متنوّعة بحسب الغرض الذي قصده الرّحالة منذ خروجه من بلاده، ولكن اللافت للنظر هو اهتمامهم

---

[1] هو أبو راس محمّد بن أحمد بن عبد القادر بن محمّد الراشدي الجليلي المعسكري. ولد سنة 1150هـ. نشأ يتيما في بيت علم وحسب. تعلم بمسقط رأسه بمعسكر، له مشاركة في الأدب، والفقه، والحديث، والتاريخ.

ينظر: الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص342؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص306.

[2] أبو راس المعسكري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982.

بالرّحلة الحجازية التي أبدعوا فيها شعراً، ونثراً، فوصفوا شوقهم للحجاز، والمعالم المقدّسة فيه، وفي أثناء رحلتهم إليه نقلوا ما اعترضهم في الطريق من مسالك وبلدان. كما سعوا إلى المجالس العلمية، والجلوس في حلقاتها للاستفادة والإفادة فيما بعد.

خرج الجزائريون من وطنهم طلباً للعلم، أيضا، والاستزادة منه، وللتجارة كما رأينا مع ابن حمادوش، وهناك من رحل مع باي من بايات الغرب الجزائري لتقييد انجازاته، وأعمالهم حيث كان هدفهم بسط النفوذ العثماني على كلّ الأراضي الجزائرية، وهناك من انساح في الجنوب الجزائري واصفاً المدن والقري، والجبال والوديان كما فعل ابن الدين الأغواطي بتكليف من صديق له.

7/ رحلة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال لابن حمادوش:

عاش عبد الرّزاق بن محمّد المعروف بابن حمادوش الجزائري خلال القرن الثاني عشر الهجري. ولد بمدينة الجزائر سنة 1107هـ، وتوفي بعد حوالي تسعين سنة بالمشرق على بعض الظن سنة 1197هـ[1] .

درس ابن حمادوش في وطنه وتقلّد بعض الوظائف الدينية، ولكنّه منذ العشرينات من عمره أخذ يجوب العالم الإسلامي، فبدأ بالحجّ ثمّ قام برحلة إلى المغرب الأقصى سنة 1156هـ. لُقب والده بالدباغ لامتهانه الدّباغة غير أنّ ابن حمادوش عاش فقيرا لأنّه امتهن العلم لا الدّباغة، وخلال عمره الطويل عاصر ابن حمادوش أحداثا مهمّة في بلاده وفي العالم، فقد استقلت الجزائر أو كادت عن الدولة العثمانية في عهد حكم الدايات كما عاصر ابن حمادوش تسلّط اليهود الاقتصادي وخصوصا اليهود المهاجرين من أوربا، وعلى المستوى الإسلامي فقد شهد ابن حمادوش بنفسه الحرب الأهلية بالمغرب الأقصى.

وينبغي التنويه هنا إلى أنّ ثقافة ابن حمادوش هي ثقافة معاصريه، ولكنّه تفرّد عنهم بالتخصص في الجانب العلمي فبينما درس مثلهم العلوم الشرعية واللّغوية وأخذ العلم مثلهم قراءة وإجازة نجده يميل بطبعه إلى العلوم الرياضية والطبية وما شاكلها، فهو صيدلي وطبيب وفلكي ومنطقي، وقد ألّف في كلّ هذه الأصناف من العلوم، وكان مهتّما بالفقه والنحو والتّصوف والأدب والتاريخ.

خرج ابن حمادوش من مدينة الجزائر في 14 فيفري سنة 1743م[2] إلى المغرب فزار تطوان، وبقي فيها فترة زمنية معينة اشتغل خلالها بنسخ الكتب[3] بعد أن كسدت تجارته، وهناك التقى بالعديد من العلماء، وأخذ عنهم الفقه، وأعطوه بعض الإجازات[4].

---

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص438.

[2] عبد الرزاق بن حمادوش، رحلة ابن حمادوش الجزائري" لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، تح: أبو القاسم سعد الله، لمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص29.

[3] نسخ الكتب أو الوراقة: مهنة عُني بها الأقدمون لنشر المخطوطات، فكانوا ينسخون، ويصحّحون، ويبيعونها كتباً.

[4] الإجازة: لغة: الإذن، والاستجازة: طلب طالب العلم من أستاذه، وشيخه أن يجيزه بمسموعياته ومروياته، التي حصل عليها، وأن يأذن له بالنقل عنه، فالطالب مجازٌ له، والأستاذ مجيزٌ، ولا تمنح الإجازة إلاّ لماهر في صنعته، أو متقن لمعارفه، وينبغي للمجيز أن يكتب الإجازة، أو يصدق على صحتها، أو يتلفظ بها " أمام الشهود " أو يقتصر على الكتابة مع قصد الإجازة.

انتقل بعدها إلى مكناس في 10 أفريل سنة 1743م حيث بقي فيها عشرة أيام، ليتوجه منها إلى فاس التي التقى بعلمائها، ونقل بعض عاداتهم من ذلك المولد النبوي الشريف، وبعد أن باع الرّحالة جميع سلعته في فاس رجع إلى تطوان، واشترى كتبا في الحديث والفقه والأدب ثم عاد إلى الجزائر حيث وجد ولديه الحسن والحسين قد كبرا، أمّا زوجته فلم تحسن استقباله لاشتغاله بالعلم لا بالتجارة التي تكسبه قوت يومه.

وبعد استقراره في الجزائر اشتغل في نسخ الكتب، وبيع الأعشاب، وتركيب المعاجين والأشربة، ثمّ وُظف في الجامع الكبير، حيث تولى تدريس" صحيح البخاري".

تحدث في رحلته عن عقود الزواج بالجزائر، واحتفالات المولد النبوي الشريف، وليلة القدر، كما نجد فيها، أيضا، حديثاً عن مسائل حسابية وفلكية، وقصص الأنبياء، والخلفاء العباسيين. فجاءت رحلته متنوّعة لم يلتزم فيها منهجاً معيناً.

وصف ابن حمادوش خلال هذه الرّحلة الحياة العلمية، والسياسية، والاقتصادية في المغرب،فقدم وصفاً مستفيضاً عن علمائه، وأحوال النّاس، ومعيشتهم، وأخبارهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، كما عاصر أحداثا هامة في بلاده،خلال الحكم العثماني، فتحدث عن الباشوات، وسلاطين الدولة العثمانية، والغارات الإسبانية على الجزائر.

***/ قراءة في العنوان:**

يندرج العنوان في النص الرّحلي ضمن عناوين السرود القديمة، وكل دراسة للمتن الرّحلي أو غيره يجب أن تنطلق من العنوان لما له من أولوية على كافة العناصر المكوّنة الأخرى، وباعتباره "العتبة الأولى التي تحاور المتلقي وتشير إلى جنس المؤلف"[1].

[1] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، تجنيس، آليات الكتابة، خطاب متخيل، ص171.

بل إنّه المفتاح الذي يمكن القارئ من الدخول إلى عالم النص، ومن ثم فتح مغاليقه لأنّ "الولوج إلى النص لا يمكن أن يتم دون المرور على العتبة، فأهمية العنوان بالنسبة لنصه كأهمية العتبة بالنسبة للبيت ولهذا قيل: أخبار الدار على باب الدار"[1].

فالعنوان هو الذي يمظهر النص ويعلن نية قصديته، أي ما يريد أن يقوله النص بل إنّه يفتح الأفق أمام القارئ لتصور محتواه العام ومضمونه، ومن ثم فهو يخبر عن النص ويفصح عنه باعتباره جزءً من أجزائه الأساسية.

وكما يستجيب النص لعمليات التفكيك وإعادة البناء وصولا إلى استكناه دلالته يضع العنوان نفسه في أُبهة الاستعداد لمثل هذا الجهد القرائي.

ومن هذا المنطلق ارتأينا أن نستوقف عند العنوان الذي وسم به ابن حمادوش رحلته وهو "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، فما طبيعة هذا العنوان؟ وهل استطاع ابن حمادوش أن يلم من خلاله كل القضايا والتفاصيل التي تحدّث عنها في متن رحلته؟

هذه بعض التساؤلات التي تتبادر إلى ذهن المتلقي وهو يصطدم بهذا النمط من العنونة التي تخضع لاختيار كاتب النص بل وللنص نفسه.

إنّ المتصفح لعنوان هذا النص الرّحلي يجد أنّه لا يحيل على جنسه، فلو حددنا مثلا هذا النص انطلاقا من لفظة "نبأ" لاستشعر القارئ أنّ هذا النص يتضمن حديثا عن الأخبار والوقائع، ومن ثم فهو يبدو أقرب إلى النصوص التاريخية، ولو تأملنا كلمات (الحسب، النسب، الحال) لافترضنا بأنّ هذا النص أقرب إلى السيرة الذاتية والتراجم منها إلى فن الرّحلة، أمّا لفظتي لسان ومقال فهما متقاربان من حيث المعنى، ولا يمكنهما أن تحيلا إلى جنس هذا النص لأنّ كل الخطابات تنطوي على أقوال.

نستطيع من خلال هذه القراءات الافتراضية أن نستشف اللّبس الذي يجده المتلقي في تحديد هذا النص، ومن هنا يتبين لنا أنّ ابن حمادوش أراد أن يترك عنوان نصه مفتوحا للقارئ يؤوله كيفما شاء ويترك له الفضول لقراءة النص، ومن ثم الحكم عليه إن كان ينتمي إلى هذا الحقل أو ذاك.

[1] بلعابد عبد الحق، عتبات جيرار جنيت من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص13.

والملاحظ أنّ المؤلف اعتمد في صياغة عنوانه على بعض الخصائص وقوانين العناوين التقليدية والتي تتجلى في الطول والمضمونية والتّسجيع، ذلك أنّ حضور المضمون والسجع في العنوان يستدعي ضرورة عنصر الطول حتى يكون أكثر وضوحا وإغراء واستيعابا لاتساع مضمون الرّحلة، كما أنّ وجود السجع في العنوان يثير لدى القارئ فضولا يدفعه إلى الغور في أعماق النص، بحيث يستشعر المتلقي ذلك التناغم الصوتي الذي نشأ عن المزاوجة بين السجع (لسان المقال- الحال) والجناس (النسب والحسب) اللذان أضفيا على العنوان سمة الجمالية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ أبا القاسم سعد الله قدم تعليقا على عنوان الرّحلة في قوله" فإذا كانت عبارة (لسان المقال) واضحة المعنى فإنّ عبارة (في الحسب والنسب والحال) لا تدل على الموضوعات التي عالجتها الرّحلة في الجزء الثاني إذ ليس فيها إلا أخباره الشخصية وأخبار بلاده وأحوال المغرب وقراءاته من الكتب القديمة"[1].

ونحن نتفق معه في هذا الرأي لكن هذا لا يعني أنّ الجزء الثاني ليس فيه حديث عن النسب والحسب فقد عثرنا على عبارات في الرّحلة تؤكد اهتمام صاحبها بالأحساب والأنساب منها قوله مثلا" إنّ هذا اجتمعت فيه ثلاث خلال كل واحدة منها لو انفردت لأوجبت عليك أن لا تتعرض له في شيء، الأولى النسب، رجل شريف من آل بيت النبوة، الثانية أنّه رجل عالم، الثالثة قلّة ذات اليد.."[2].

وممّا سبق نصل إلى نتيجة مُفادها أنّ العنوان الذي وصفه ابن حمادوش لهذه الرّحلة لم يستطع أن يفصح عن كل محتوياتها بل أشار إلى جزء منها فقط، ولعلّ مرد ذلك راجع إلى مضمونها المتنوّع وموضوعاتها المتشعبة ممّا جعل مهمّة القبض على عنوان شامل لها أمرا مستعصيا بل مستحيلا.

[1] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري حياته وآثاره، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د، ط)، 1982، ص57.

[2] ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص112.

***/ لغة الرّحلة وأسلوبها:**

تعدُّ اللغة من أبرز الآليات التي يستخدمها الرّحالة في ترجمة أفكاره ومقاصده التي يروم إليها، بل إنّها الجسر الذي ينقل عبره كلّ ما تصوّره عدسته من مشاهد رآها أو سمع بها للمتلقي، فيدعوه إلى مشاركته واستحضار تلك الصور كما لو أنّها ماثلة أمامه.

وقد بدا ابن حمادوش من خلال رحلته دقيق الملاحظة حريصا على تتبع جزئيات الأمور وتفاصيلها ممّا جعل رحلته أكثر واقعية.

إنّ المتأمل في رحلة ابن حمادوش يجد أنّ ألفاظها جاءت سهلة واضحة بعيدة عن التعقيد أو الغرابة والتكلّف، فقد كان الرّحالة قليلا ما يفتتح بعض كلامه بفقرات مجوّدة مزينة بالسجع خاصة في حديثه عن شيوخه، ومن ذلك قوله:" شيخنا العديم النظير، ذو الفهم الرايق والحفظ الدافق، الإمام العلامة النحرير الذكي، الألمعي الزكي، أبو عبد الله سيدي مولاي محمد بن أحمد القسمطيني"[1].

وهذا لا ينفي احتواء الرّحلة على بعض الألفاظ العامية مثل (مكحلة، شكارة، شاشية) التي من شأنها أن تضفي واقعية أكثر على الرّحلة وتقرّبها من المتلقي لأنّ هم ابن حمادوش لم يكن في إظهار مقدرته اللّغوية وملكته الأدبية وإنّما همّه أن يقص ما لديه من حكايات ومشاهدات.

وقد جاءت عبارات هذا النص الرّحلي سهلة تخلو من الغرابة والتعقيد، يعتمد في تسجيل ملاحظاته على الأسلوب السهل والدقيق. وقد علّق أبو القاسم سعد الله على أسلوب الرّحالة بقوله:" وأسلوب الرّحلة يمتاز بالسلاسة والتّتابع ولا تثقله إلا عبارة الانتقال من فكرة إلى فكرة أو من فاصل زمني إلى آخر وهي في يوم كذا جرى كذا، أو ثمّ دخل عام كذا وأوله هو يوم كذا...."[2].

وإذا تأملنا الجمل التي كتب بها هذا النص الرّحلي وجدناها سهلة مألوفة ركّزت على الأفعال لاتفاقها وطبيعة الرّحلة، لذا امتاز الأسلوب بالتلقائية والاسترسال ووضوح المعاني.

[1] ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص43.

[2] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرّحالة ابن حمادوش حياته وآثاره، ص59.

وقد نوّع الرّحالة في استخدامه للضمائر المتصلة بتلك الأفعال حيث وردت أفعال أسندها الرّحالة إلى ضمير الجمع (خرجنا، زرنا، نزلنا، سرنا...)، وأخرى إلى ضمير المتكلم (سمعت، لقيت، نزلت...) الأمر الذي أكسب الأفعال حيوية وحركة تنسجم مع فعل الرّحلة.

وما ميّز أسلوب الرّحالة، أيضا، كثرة اقتباساته من الشعر والقرآن الكريم والحديث الشريف، والأمثال والحكم، ولعلّ مرد ذلك راجع إلى كثرة محفوظاته وسعة ثقافته، الأمر الذي جعل رحلته غنّية بالشواهد النصية التي تدعم أفكاره، وتضفي على أسلوبه طابع الجمالية.

***/ التراث الثقافي في رحلة ابن حمادوش:**

يُعَدُّ التراث الثقافي ركيزة أساسية من ركائز المجتمع، ومرآة عاكسة للحياة الشعوب، باعتباره زاد الأمّة التي تتوارثه من جيل إلى جيل .

شكّل التراث الثقافي في أدب الرّحلة الجزائري مركز إشعاع لمختلف العلوم، والقلب النابض لأدب الرّحلات، كون الرّحالة ينقل بكل صدق وأمانة ذلك التراث لما يحتويه من قيمة تاريخية وحضارية مهمّة. والملاحظ على أدب الرّحلة في الجزائر أنه يزخر بمادة غنية من التراث سنحاول الوقوف عند بعض منها.

العادات والتقاليد:

احتلت العادات والتقاليد حيّزاً كبيراً في مخيّلة الفكر الإنساني، فلكلّ أُمّة عاداتها وتقاليدها، ومعتقداتها التي توارثها الخلف عن السلف، فهي كالمرآة تنعكس عليها صور الماضي، إذ تُمارس يوميًا داخل المجتمع الذي يُحاول الحفاظ على كيانه من خلال التمسك بها.

وقد كان الرّحالة في حديثهم عن حياة الشعوب، وعاداتها، وتقاليدها، وأعرافها، وأخلاقها، وطريقة لباسها، وأحوالها المعيشية، يتجهون إلى استنباط أسلوب الحياة في البلدان التي حلّوا بها من خلال تصوير الواقع الاجتماعي، والثقافي، والديني، والاقتصادي بكل أبعاده، وتحليل ذلك التراث القيّم الذي يكشف عن طريقة معيشتهم، لهذا عُدت الرّحلة من المصادر المهمّة لدراسة المجتمعات بكافة جوانبها وأبعادها الأنثروبولوجية على مرّ العصور.

تُعرف التقاليد بأنها "طائفة من قواعد السلوك الخاصة بطبقة معينة أو طائفة اجتماعية، أو بيئة محلية محدودة النطاق، وهي تنشأ من الرضي والاتفاق الجمعي على إجراءات وأوضاع معينة خاصة بالمجتمع المحدود الذي تنشأ فيه لذلك فهي تستمد قوتها-مثلها- في ذلك مثل العادة والعرف(*)- من قوة المجتمع... وتفرض سلطتها على الأفراد باسمه "[1].

كان المجتمع الجزائري باعتباره جزءً من المجتمع العربي، ومن الأمة الإسلامية وما تجمعه بهما من خصوصيات لغوية ودينية ومعايير، وقيّم،تجعله يتمتع بخصوصية ثقافية، تميّزه عن المجتمعات الشرقية في قيّمه، وعاداته، وتقاليده، وما يُلحق بها من أنماط سلوكية، وقد حملت الرّحلات في نصوصها المكتوبة وجوهاً متنوعة لأنواع التعاملات الاجتماعية، وعادات مختلفة تتباين من شعب لآخر ومن منطقة لأخرى كون العادة "تتشكل من اشتراك الأفراد في ممارسة فعل أو سلوك ما، فهي عادة اجتماعية، والتي هي عبارة عن مجموع الأفعال، والأعمال، وأنماط السلوك الذي تنشأ لدى الجماعة بصفة تلقائية لتحقيق أغراض تتعلق بمظاهر السلوك والأوضاع "[2].

كان الرّحالة الجزائري يتمتع بقدرات تصويرية خاصة، ذات حس عال بتجسيد الأمور الموجودة في المجتمعات تجسيداً واقعياً، صوّر الكثير من مظاهر الحياة، والتعمق في مضامينها، ومن ثمة فالتراث الرّحلي لا يخلو من العادات والتقاليد بشتى أنواعها، فنقلوا في رحلاتهم كثيرا مما رأوه، وسلّطوا الضوء على كثير من الأمور من بينها حفلات الختان، وعقود الزواج، والخطب، والأطعمة والملابس والأعراف، بالإضافة إلى مناسبات أخرى دينية كشهر رمضان الكريم، الذي يُعَدُّ من أكثر المناسبات احتفالاً لدى الشعوب العربية عموماً، والجزائرية خصوصاً فعكست تلك الرّحلات صوراً لأشكّال التقدم، والرقي، والحضارة في البلدان الذي قصدوها، لذا شكلت الرّحلة رابطاً قوياً من بين روابط التكامل الاجتماعي من خلال ذلك التقارب، والانصهار في ثقافات الغير، ما جعلها وسيلة للتقارب والتواصل بين مختلف الأمم.

(*)**العرف**: ج أعراف ما درج على الناس إتباعه من قواعد معينة في شؤون حياتهم وشعورهم بضرورة احترامهم،ينظر: حميد خروف، الربيع جصاص، علم اجتماع الثقافة، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، (د، ط)، 2003، ص80.

[1] حميد خروف، الربيع جصاص، علم اجتماع الثقافة، ص81.

[2] مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د، ط)، 1965، ص375.

حملت الرّحلات الجزائرية في نصوصها أنواع مختلفة، في التعاملات الاجتماعية ومن بين تلك التعاملات ما روّاه ابن حمادوش عن عادة الجزائريين في ليلة القدر" في تلك الليلة يخرج المؤذن ومعه طائفة من المصلين يطفون البلاد، ويرجعون من طريق أخرى،وكانوا يرفعون أصواتهم بالصلاة والسلام على النبي، حاملين معهم شموع، فإذا دخلوا المسجد ركبّوا تلك الشموع في حسك من عود أو في قناديل القوارير، ويُحيّون الليل كلُه إلى الفجر، فإذا قرب الفجر أوتروا وقرؤوا ما تيسر من الفواتح ثم أعلموا الناس بالفجر..."[1].

وصف ابن حمادوش ما يحدث في تلك الليلة "إذا فرغ المصلون من الصلاة قرؤوا حزب الصبح وما يتبع ذلك، حتى يأتي موقد القناديل بأحد الشموع إلى المحراب، وكان الإمام يجتمع مع المصلين قبل صلاة الصبح في المحراب، فيفتح كتابه ويقرأ من باب ونضع الموازين القسط يوم القيامة إلى أخر الختم"[2].

تُعَّدُ هذه الشعائر من أهم ما يُميز ليلة القدر، كونّها ليلة أُنزل فيها القرآن الذي كان مبعث نور وأمل وهدى، ورحمة لأمة محمّد صلى الله عليه وسلم ويكثر فيها التسبيح والاستغفار في هذه الليلة المعظمة "سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، فيعيدون هذا التسبيح مائة مرة، وفي هده المدة يرشون ماء الورد حتى يعم الناس فيها، ثم يسكتون ويشرع الإمام في الدعاء المعد لذلك، ثم يقرؤون من الفواتح ما تيسر كلّها برفع اليدين، ثم ينصرفون إلى خارج باب الواد، قبر سيدي عبد الرحمن الثعالبي ويحضرون ختم البخاري، ثم يتهيؤون إلى العيد..."[3].

تُجسد هذه العادات تراث ثقافي، يُعبّر عن أصالة وهوية المجتمع وعلى الرُّغم من تطور تلك الطقوس المستخدمة عبر الأزمنة إلاّ أنّ الاحتفال واحد، يُميز أهل الجزائر عن بقيّة الشعوب، وكان لمثل هذه الاحتفالات قيّمة كبيرة في نفوس الناس كونها جزء من تاريخ الجزائر وحضارته.

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النّسب والحسب والحال، ص126.

[2] المصدر نفسه، ص126.

[3] المصدر نفسه، ص126.

وقد أبدى ابن حمادوش اهتمامه بكافة أشكال العادات والتقاليد التي تُبين وتبرز الجانب الاجتماعي للجزائريين، لهذا كان هذا النوع من الدراسة نصيباً وافراً في معظم الرّحلات، فالرّحالة وقف عند عديد من مظاهر الحياة الاجتماعية والدينية التي مازال مجتمعنا متمسكاً بها.

كما تعرّض ابن حمادوش لوصف ليلة المولد النبوي، إذ كانت البلاد "تحتفل بهذه المناسبة احتفالاً كبيراً، يُتلى فيها البخاري طوال الليل وتُضاء الشموع الضخمة ويطوف القراء وغيرهم الشوارع وهم حاملين المصابيح، وتُعَدُّ النسوة أطعمة خاصة، وتُعزف الموسيقى ويَكُثر إنشاد الشعر الديني والموشحات"[1]. وفي هذا القول إشارة إلى الاحتفال بليلة القدر وليلة المولد معاً وما يتبعها من ممارسات خاصة، فكانت ليلة المولد، ليلة تعظيم لحبيب الله محمد صلى الله عليه وسلّم إذ تذكر معجزاته الخارقة، وأخلاقُه الفاضلة، وتُنشر بعض خصائصه الفائقة وإذاعتها على أسماع العَوّامُ الذين لا يحضرون مجالس العلم والعلماء فيزيد ذلك في إيمانهم ويُقوي يقينهم، مع الحث على محبته وإتباع سنته فكانت المدائح النبوية تُطرب الأسماع، وتهز القلوب.

عدّ بذلك المديح النبوي "فن من فنون الشعر التّي أذاعها التصوف فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلاّ عن قلوب مفعمة بالصدق والأخلاق"[2]من أشهر ما يُقال في تلك الليلة المعظمة قصيدة معروفة جداً يُرددها الكبير والصغير ألاّ وهي "طلع البدر علينا" وقصائد حسان بن ثابت وغيرها.

إن هذه الصورة التي نقلها الرّحالة هي جزء من تراث الجزائر الذي تتوارثه الأجيال منذ القدم، فأصبحت هذه الممارسات راسخة ومحفورة في الذاكرة الشعبية يُجسدها الفرد وكأنها فرض عين عليه.

فعلى الرّغم ممّا تعرفه الحياة الاجتماعية من تغيرات ملموسة في أوساطها الحضارية إلاّ أنها مازالت تحتفظ بالخصائص المحافظة التي لا يستطيع المرء تغييرها، فأصبح الفرد الجزائري يعتزُّ بتلك القيّم الرفيعة، والعادات الكريمة والتقاليد السامية التي توارثوها أباً عن جد، مع توالي الأجيال وتعاقبها وأصبح كلّ فرد

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النّسب والحسب والحال، ص127.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص247.

متشبعاً بها، مستوعباً كلّ الخصال الحميدة في مجتمعه محترماً تلك الأعراف السائدة محافظاً على العلاقات الاجتماعية، ومهتماً بعادات الاحتفال الخاصة بكلّ مناسبة.

كانت هذه عبارة عن لمحة عن التراث الثقافي الجزائري، إذْ يرجع الفضل لأدب الرّحلات الذي نقل هذه العادات الاجتماعية.

إذا تعدُّ رحلة ابن حمادوش جزءا من تراث الجزائر العربي الإسلامي، وعلى الرّغم من أنّ الرّحلة تشكو من بعض النقائص كافتقارها لوحدة الموضوع وضعف منهجها واعتمادها على تقنية الاستطراد إلا أنّها تبقى مصدرا لا يستغنى عنه لفهم الحياة الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية للجزائر والمغرب ذلك أنّ ما جاء فيها من أخبار اجتماعية (العادات والتقاليد، والأسعار، والنقود، وإحياء المولد النبوي وليلة القدر...) يعتبر بحق مادة أولية بالنسبة للباحثين في القرن الثامن عشر، كما أنّ ما ورد فيها من أخبار عن علماء عصره وإجازاتهم وعلاقاتهم ببعضهم البعض وتنافسهم ومقدار معارفهم هو ما يزيد هذه الرّحلة أهمية.

يمكن القول أنّ ابن حمادوش استطاع أن يصوّر كثيرا من ملامح العصر الذي قام فيه برحلته وثقافة البلد الذي زاره، وهو المغرب وأحوال الشعوب التي اختلط بها، وهي بهذا الاعتبار تعدُّ مصدرا لوصف الثقافات الإنسانية نظرا لكونها تحوي قدرا كبيرا من المعارف.

8/ الرّحلة في الأدب الجزائري الحديث:

عرفت الرّحلة الأدبية العربية خطوة جديدة كانت منعرجاً حقيقياً في مسارها عند احتكاك الرحالة العرب الحضارة الغربية، وقد تغير اتجاه الرحلة من المشرق والمغرب إلى أوربا وقد تفاعل الرحّالون العرب مع الحضارة الغربية، وفي مقدمتهم الثنائي " رفاعة الطهطاوي"(1801م ـ 1873)[1]، وخير الدين التونسي (1810م ـ 1890)[2] اللذان احتكّا بالحياة الأوربية، وإفرازات الثورة الفرنسية، واقترحاَ الأخذ من إيجابياتها، مع الإصرار على أن الحضارتين الأوربية والإسلامية العربية مختلفتين. لذلك رفضاَ ما يتعارض مع الإسلام. إلى جانب رحلات "أحمد فارس الشدياق(1887م) إلى مالطة وبريطانيا وفرنسا وجمع أخبارهما في كتابين سماهما "الواسطة في معرفة أحوال مالطة" و"كشف المخبأ عن فنون أوربا"[3].وتعددت الرحلات في الوطن العربي في القرن العشرين وتنوعت الاتجاهات وأشهرها رحلة "محمد لبيب البتنوني" المعروف برحلته الحجازية و "الشيخ محمد رشيد رضا" وله رحلتين إلى سوريا و"محمد الخضر حسين " صاحب رحلات كثيرة في المغرب والمشرق منشورة في مجلات عربية مختلفة.

وقد عرف فن الرحلة كأثر مكتوب في الجزائر نشاطاً معتبراً في القرن التاسع عشر، وذلك في إطار المناخ الجديد الذي عرف ظهور المطبعة، فنشطت حركة الطبع والنشر، وهو نشاط عكسته نماذج معتبرة بمادتها ورجالها وقضاياها.

دوّن "الأمير عبد القادر " رحلته إلى الحجاز والشام وبغداد ضمن مذكراته التي تروي سيرته الذاتية والتي جمعها ونشرها بعض الباحثين فيما بعد(عبد القادر بن محي الدين، مذكرات الأمير عبد القادر،سيرة ذاتية، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون)[4]، وقد جاءت الأخبار عن رحلته موجزة في هذه السيرة الذاتية لأنه كان يركز على حياته النضالية وعلى الرّغم من ذلك نستطيع التعرف على مسار رحلته

[1] رفاعة رافع الطهطاوي، تلخيص الإبريز في تلخيص باريز، تقديم: الصغير بن عمار، موفم للنشر، الجزائر، (د، ط)، 1991.

[2] خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تح: المنصف الشنوفي، شركة أوربيس للطباعة، تونس، ط2، 2002.

[3] أحمد فارس الشدياق، الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبأ عن فنون أوربا 1834- 1857، حررها وقدم لها: قاسم وهب، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2004.

[4] محمد الصغير بناني وآخرون (تحقيق)، مذكرات الأمير عبد القادر،سيرة ذاتية، شركة دار الأمة، الجزائر، (د، ط)، 2004.

الدقيق ومجمل أعماله خلال السفر وأشهر العلماء الذين لقيهم إلى جانب بعض انطباعات المؤلف وآرائه حول البلدان التي اجتازها في رحلته وسكانها.

في الرحلة السياسية نماذج تتكامل في بعض الأحيان، وتختلف أحايين أخرى. فمن النماذج المتكاملة رحلتان اتجه صاحبهما إلى باريس، أولاها رحلة " سليمان بن الصيام " إلى فرنسا سنة 1852، وتدعى " الرحلة الصيامية " من مليانة إلى الجزائر العاصمة في اتجاه باريس، والرحلة الثانية هي رحلة " محمد السعيد بن علي الشريف " إلى فرنسا في نفس العام، بل كانا في نفس الوفد الذي زار فرنسا لحضور المهرجان الضخم الذي أقيم احتفالاً بتنصيب " نابليون الثالث ".

اهتم " محمد السعيد بن علي الشريف " في رحلته بأمور وظواهر كثيرة بسبب ثقافته المتنوعة، فحينما قُدّر له أن يزور بيئة جديدة عليه، لم يكن مجرد سائح أو مُسجّل لمشاهد رآها بعينه، وإنما حاول أن يستخلص بعض النتائج وأن يقارن بين الجديد الذي شاهده والقديم في بيئته، وساعدته على ذلك ثقافته الفرنسية التي تكونت له بعد أن ظهر ولاءه للحكام الفرنسيين، وخاصة الماريشال " بيجو "، وارتبط بالإدارة الفرنسية التي استدعته ليكون ضمن الوفد المسافر إلى المهرجان المشار إليه.

أما رحلة " سليمان بن الصيام " في نفس الوفد، فقد كانت غنية بالوصف، حيث وصف فيها الطبيعة والآثار والقصور ومراسيم الاحتفال والقطار والباخرة والمسارح وغيرها من مظاهر الحضارة والعمران" جزى الله الدولة الفرنساوية عن العباد خير لأنها الواسطة لهذه الفضيلة، وحياة كل أرض حلت بها كأمها أمطار وبيلة...هنيئا لفرنسا التي هي أم الجزائر فقد زادها مر الليالي حدة وتقادم الأيام حسن شباب"[1].

والرحلتان تتفقان في روح المجاملة للإدارة الفرنسية التي أوفدتهما لحضور المهرجان والتي يعملان في خدمتها، وهما يمثلان نموذجاً طيباً عن أدب الرحلات في الأدب الجزائري الحديث، إلى جانب رحلة أخرى جاءت بعد ست وعشرين سنة، وهي رحلة " أحمد بن قاد " في رحلته " الرحلة القادية في مدح

[1] سليمان بن الصيام، أحمد ولد قاد، محمد بن الشيخ الفغون القسنطيني، ثلاث رحلات إلى باريس 1852، 1878، 1902، تقديم وتحقيق : خالد زيادة، دار السويدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، أبو ظبي، بيروت، ط1، 2005، ص60.

فرنسة وتبصير أهل البادية "، وهي رحلة للمشاركة في معرض دولي، ركز فيها على مظاهر الحفاوة وحسن الاستقبال، كما عبّر عن إعجابه الشديد بما شاهد في المعرض من غرائب الصناعات والاختراعات البديعة الرائعة من آلات النسيج والزراعة وآلات التبريد، لكنه يعرض في رحلته هذه للفرق الشاسع بين فرنسا المحتلة، وفرنسا المتحضرة وبين الوضع المهيمن في بلده، والوضع المشرق في فرنسا، لذلك، نجد وإن اتفقت هذه الرحلة مع السابقين في الدعاية للاحتلال الفرنسي، والانبهار بالحياة الفرنسية بوجهها السياسي والصناعي والاجتماعي، إلا أنها تعرض في ختام الرحلة حال الجزائر بلده المهان، مُعرِباً عن ظنه في أنّ حال الجزائر المزري تسبب فيه اليهود والمعمرون الذين يستغلون الأرض والإنسان يصادرون تلك، ويضطهدون هذا وذاك ليس من خطط الاحتلال الذي ينجز كل شيء بحساب.

هذه الرحلات بوجه عام تكمن أهميتها في طبيعة الاحتكاك بالغرب، وحتى وإن كانت بمباركة الاحتلال للثناء عليه، فقد حملت ضمنياً إدانة تاريخية له لما لحق الجزائر من قمع وتفقير واضطهاد، وما أصاب لغتها العربية من ضعف وركاكة لحقت الصياغة والركاكة، لأن لغة هذه الرحلات وصياغتها بدت دون مستوى سابقاتها، فعكست بذلك التدهور الذي شهده النثر الجزائري إبان الاحتلال.

أمّا في القرن العشرين فقد اختلفت الرّحلات عمّا سبقها من حيث الهدف والاتجاه، كما اختلفت مضموناً وأسلوباً. لئن كانت الرحلات السابقة قد اتجهت إلى خارج الوطن، فإن رحلات هذه الفترة اتجهت أكثر إلى داخل الوطن، وخاصة تلك التي قام بها رجال الإصلاح لهدف الفكرة الإصلاحية ونشرها بين الجماهير، ودعوتها إلى اليقظة والنهوض. كما اتجه البعض الآخر إلى المشرق العربي، أو إلى أوربا والاتحاد السوفياتي والصين. وكان الهدف منها أيضاً خدمة الشعب الجزائري بالتعريف بقضيته من جهة، وبنقل مشاهدات تفيده من قريب أو بعيد من جهة ثانية. كذلك اختلف المحتوى والأسلوب عن الأنواع السابقة إلى حد بعيد.

كانت رحلات رجال الحركة الإصلاحية في الداخل تصور مدى تعلّق الشعب بالحركة وبعلمائها، نلمس ذلك في رحلات " ابن باديس" التي سجلها، وأبرز فيها زياراته المختلفة لمدن وقرى القطر

الجزائري، وهو يطلق عليها لفظ " تنقلات "[1]. ويصرح بهدفه من وراء رحلاته وهو تذكير الناس بدينهم، وحثهم على الرجوع إليه، ثم يأخذ في وصف جولاته بذكر أسماء مدن قرى كثيرة، ويتحدث عن المساجد ويدعو إلى بناء مثلها. كما يذكر أسماء شخصيات معروفة التقى بها هنا وهناك، إلى جانب رحلته إلى تونس المعنونة " في تونس العزيزة ".

إلى جانب رحلات البشير الإبراهيمي الكثيرة داخل الوطن وخارجه. وكان أسلوبه في هذه الرحلات يمتاز بالعناية الشديدة بالصياغة والبيان والجمال الأدبي. وقد رحل إلى المشرق عام 1952م ضمن نشاطات جمعية العلماء المسلمين مبلغا لطلبات الجمعية لدى الحكومات ومعرفا بالقضية الجزائرية وبنضال شعبه ضد الاحتلال .كما قصد دولة الباكستان عام 1958م وشملت رحلته هذه الحديث عن باريس وروما ومصر التي مرّ بها في أثناء هذه الرّحلة. يقول الرّحالة معربا عن إعجابه بجامعة الأزهر" خرجت مرفوع الرأس تيها، مملوء النفس فخرا، مفعم الجوانح إعجابا بهذه الجامعة التي هي مفخرة الشرق وحجته على الغرب"[2]. وقد حدد الأهداف المتوخاة من هذه الرحلة بدراسة أحوال المسلمين في مواطنهم والاتصال برجال الدين ودراسة أحوال الحكومات الإسلامية إضافة إلى التعريف بالجمعية والجزائر .

والرحلة تحوي أخبارا متنوعة جغرافية وتاريخية بأسلوب وصفي دقيق مع روح دعابة خفيفة ولغة واضحة وأسلوب تقريري إخباري في غالب الأحيان.

ولعل أهم الرّحلات التي تحمل طابعاً سياسياً قومياً، رحلات " أحمد توفيق المدني "[3] داخل الجزائر وخارجها، في أوربا والعالم الإسلامي والعربي.

ولقد كان إنتاجه أكثر غزارة من " ابن باديس "، لأنه تفرغ إلى الكتابة والتأليف، إلى جانب نشاطه السياسي بعد 1956م(بعد اندلا ع الثورة).

---

[1] للإطلاع على رحلات عبد الحميد بن باديس، ينظر: عمار طالبي، ابن باديس: حياته وآثاره، الشركة الجزائرية، ط1، 1986، ص297- 324.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي 1952- 1954، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ج4، ص 18- 23.

[3] أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكرات)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ط)، (د، ت)، ج2.

وابتداءً من سنة 1955م تاريخ أول رحلة خارجية إلى " المغرب "، تعددت رحلات الشيخ " المدني " الخارجية وتنوعت، خصوصاً في الوطن العربي. فكانت القاهرة ودمشق وبغداد والسعودية والكويت والأردن وليبيا وتونس والسودان والصومال.

وقد صورت رحلاته التجاوب العربي العميق رسمياً وشعبياً مع الثورة الجزائرية منذ انطلاقها. وبدت معظم الأقطار العربية متجاوبة مع الثورة باختلاف أنظمتها وأوضاعها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لكن باختلاف واضح أولاً في حرارة ذلك التجاوب، وفي حجم الدعم المادي والسياسي.

وهناك رحلة أخرى إلى المشرق العربي كتبها " محمد المنصوري الغسيري "[1] حين ذهب عام 1953م مع وفد الكشافة الإسلامية الجزائرية إلى مصر، ومنها انطلق مع الشيخ البشير الإبراهيمي إلى الحج، ثم إلى بعض أقطار المشرق، وهو لم يكتف في رحلته هذه بتسجيل مشاهد وصور، بل عبّر فيها عن انطباعاته ومشاعره وأحاسيسه بما يرى. ولكن من زاوية العالم المصلح الذي يدعو إلى فكرة معينة ويلح عليها، وأجرى فيها مقارنة بين واقع المشرق العربي الذي تحررت معظم أقطاره من الاستعمار، وبين الواقع المؤلم الذي يعيشه الشعب الجزائري. وفي مواقف كثيرة يستشهد بالشعر مما ينبئ عن ثقافة عربية واسعة.

وهناك رحلات أخرى مختلفة، كرحلة " محمود بوزوزو "[2] إلى فرنسا سنة 1939م بعنوان " من وحي البرلمان الفرنسي "، إلى رحلة " حمزة بوكوشة "[3] إلى المغرب الأقصى. و"الطيب المهاجي "برحلاته إلى فاس والحجاز والتي ذكرها في كتابه(أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر) وعموماً حاول الكتّاب الجزائريون في هذه الفترة كتابة مذكراتهم بوصف رحلاتهم الداخلية والخارجية، وتسجيل مشاهداتهم ولقاءاتهم في قالب أدبي. ولذلك نجد من يسمي هذا الأدب " أدب

[1] نشرت الرحلة في جريدة البصائر، السلسلة الثانية، في إحدى وعشرين حلقة: حلقتان معنونتان " مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الإسلامية" نشرتا بتاريخ 2 و12 محرم 1373هـ، 11 و25 سبتمبر 1953م، وبقية الحلقات معنونة بـ" عدت من الشرق" ونشرت بداية من تاريخ 5 ربيع الثاني 1373هـ ، 11 ديسمبر 1953، وإلى غاية 24 شوال 1373هـ، 25 جوان 1954.

[2] محمود بوزوزو، من وحي البرلمان الفرنسي، مجلة البصائر، السلسلة 2، العدد13، 10 نوفمبر 1974، ص3.

[3] حمزة بوكوشة، أربعون يوما في المغرب الأقصى، مجلة البصائر، السلسلة 2، العدد33، 12 أفريل 1948، ص3.

المذكرات " بدل " أدب الرحلات "، مثل عبد المالك مرتاض. وهناك من يسميه " أدب السياحة "، على اعتبار السياحة رحلة تلقائية حرة إلى مكان مرغوب فيه، بِنيّة التجوال والتمتع والاستطلاع والفضول والاكتشاف.

والأدب السياحي هو ثمرة كل ذلك في شكل جمالي يطبعه الإمتاع الوصفي والتنميق الكلامي، والتبليغ الانطباعي الذي يمتاز ببساطة الوظيفة الإخبارية. وقد أسهم في ترسيخ هذا النوع من الأدب الدكتور " عبد الله الركيبي " بكتاب سمّاه " في مدينة الضباب ومدن أخرى "، ثم أردفه بعنوان فرعي " سياحة أدبية "، وقد نشره عام 2003م، بعد ما كتب قبله " الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز " عام 1999م.

لقد سيطر الحديث عن مدينة الضباب " لندن" في هذا الكتاب إلى جانب مدن أخرى زارها في أزمنة متقاربة حيناً، ومتباعدة حيناً آخر، ولأمكنة مختلفة، عربية وأجنبية، كمصر وسوريا وفرنسا والفيليبين والمجر وألمانيا وروسيا.

أما عن فنيات الأدب السياحي عند " الركيبي "، فإننا نلاحظ أن أدبيته تفتر أحياناً في المواقف التي يطغى عليها السرد التاريخي، والإخبار السياسي. وفي موقف أخرى تسمو ويطيب جمالها خاصة من المواقف التي تتخللها مشاهد وصفية ممتعة، منسوجة من وحي المكان.

والكِتَاب على العموم زاخر بكثير من الأساليب الفنية التي استمدها الكاتب من تمرسه المبكر بالفن القصصي. وفي الكِتَاب كذلك نفحات من روح التسامح الحضاري، إذ تتداعى الأمكنة والتجارب في العين والذاكرة. ويمكن اعتبار هذا النص السياحي عن " الركيبي " واحة فنية تعكس تجربة مكانية خارج البلاد.

ولا يفوتنا ذكر رحلة مهمّة قام بها الأديب " أحمد رضا حوحو " إلى الاتحاد السوفياتي سنة 1950م، وقد سجل فيها ما شهده من تطور حضاري، وصناعي، وتقدم ثقافي في روسيا. وحاول أن ينقل صورة صادقة للبيئة الجديدة التي ذهب إليها. وتعد قيمة هذه الرحلة في موضوعها، ما قدمه من معلومات وأشياء جديدة. أما من الناحية الفنية، فقد ابتعد الكاتب عن الأسلوب الفني مغلباً عليه

الأسلوب الصحفي. إلى جانب رحلة "عثمان سعدي المعنونة "وطني" والمنشورة في جريدة البصائر عام 1953م ورحلة"محمد علي دبوز"من الجزائر إلى القاهرة إلى طانطا (الريف المصري)والتي عنونها"وقفة في دار الرافعي وعلى قبره" حيث تحدث عن مصطفى صادق الرافعي بعد الرحلة إلى مسقط رأسه(طنطا) واكتشاف الأماكن و المعالم التي كان يرتادها .وقد نشرت الرحلة في البصائر سنة1955م.ورحلة "أبو القاسم سعد الله" إلى السعودية[1] وهي من الرحلات العلمية إذ كانت تهدف حضور الندوة العالمية الأولى المخصصة لمصادر الجزيرة العربية وقد عنونها "رحلتي إلى الجزيرة العربية وطبعها في كتابه الموسوم"تجارب في الأدب والرّحلة".

ونختم برحلات "أحمد منور"[2] المتعددة، فمنها ما كان أوربية الوجهة مثل رحلته إلى فرنسا وانجلترا سنة 1976م وكانت لغرض السياحة و التجوال ومنها ما كان مشرقي الوجهة كرحلاته إلى ليبيا ومصر والكويت، وكانت الأخيرتين لغرض ثقافي.وقد نشرت رحلاته إلى أوربا في جريدة السلام سنة1996م. ونشرت باقي الرحلات في جرائد عربية كجريدة العرب الليبية (1991م) والقبس الكويتية (1996م).

إذا تطور فن الرحلة في الجزائر في العصر الحديث واهتمت إلى جانب الجغرافي والتاريخي بنقل الانطباعات والمشاعر والتصورات كما نقلت قضايا إيديولوجية وثقافية وحضارية من وجهات نظر الكتاب وتعددت الأغراض أيضا من دينية إلى تعليمية إلى تجوال وسياحة وقد استجدت دواعي أخرى لذلك كحضور الملتقيات والمهرجانات والتظاهرات الثقافية وأداء مهام سياسية أو دبلوماسية.وقد اختلفت طرق تدوين هذه الرحلات فمنها ما استقل بكتب كاملة ومنها ما أخذ حيزا في كتب أخرى ككتب السير أو المذكرات ومنها ما ظل حبيس الجرائد والمجلات.

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د، ط)، 1983.

[2] أحمد المنور، مذكرات عائد من الجماهيرية، جريدة العرب، لندن، ع6، 21، 22 نوفمبر، 1991.

– أحمد المنور، أسفار وذكريات في فرنسا، جريدة السلام، ع1301/ 1307/ 1315/ 1321/ 1327/ 1339/ 1387 من فيفري إلى ماي 1996.

9/ بنية النص السردي الرّحلي: بنية المقدّمة، بنية السفر، بنية الخاتمة(رحلتي إلى المغرب لأبي القاسم سعد الله أنموذجا):

من الرحلات الجزائرية الحديثة: رحلتي إلى المغرب لأبي القاسم سعد الله الذي لم يكن مؤرخا لأدب الرّحلة والرحالة الجزائريين فحسب بل كان هو الآخر رحالة وأديب. قام بالعديد من الرّحلات. عثرنا على بعضها منشورا في كتابه تجارب في الأدب والرحلة الذي نشرته المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائرية سنة 1983م.

يقول سعد الله في مقدمة الكتاب:" يضم هذا الكتاب مجموعة من التجارب في الأدب والنقد والقصة والشعر وأراء في الحركة الأدبية في الجزائر والمغرب العربي والوطن العربي على العموم كما يضم أخبار رحلتي إلى المغرب وإلى الجزيرة العربية، بالإضافة إلى رحلة أحد الأمراء الألمان إلى عنابة مترجمة عن الإنجليزية"[1]، ويحوى هذا الكتاب أيضا إضافة إلى ما سبق رحلة داخل الوطن أطلق عليها اسم زيارة لخنقة سيدي ناجي، قام بها في 8 فبراير 1980م.

* بناء الخطاب الرّحلي:

إنّ البحث عن الجذر اللغوي لكلمة البِنْيَة في المعاجم العربية لا يوصل إلى تعريف جامع محدد لها، ذلك أنّها لم ترق في الاستعمال اللغوي لدى النقاد العرب القدماء إلى المصطلح المتداول، ومع ذلك أشاروا إليها من خلال بعض المفاهيم. ففي لسان العرب مثلاً البِنْيَة والبُنْية: ما بَنَيْتُه، وهو البِنَى والبُنَى، والبِناءُ: المِبْنِيُّ والجمع أبنية، والبِنْيَةَ كأنّها الهيئة التي بُنِيَ عليها[2].

ويُعرّف ابن فارس البنية في معجم مقاييس اللغة:" بنى: الباء والنون والياء أصلٌ واحد، وهو بِناءُ الشّيء بِضَمّ بعضِه إلى بعضٍ "[3].

إنّ البِنْيَة شيء يتعدى ظاهر الشيء إلى ماهيته، فالملامح الخارجية وحدها غير كافية للدّلالة على صحة الفطرة أو اعتلالها، بل لابُدّ من النفاذ إلى ما وراء هذه الملامح.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص7.

[2] ابن منظور، لسان العرب، ج14، ص 94.

[3] ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ، ج1، ص 302.

وقد ورد أصل الكلمة في القرآن الكريم سبعا وعشرين مرّة:" أربع عشرة مرّة منها على صورة الفعل الماضي والأمر، وثلاث عشرة مرة على صورة الاسم مثل: بناء وبنيان"[1].

وتحدث النّحاة عن البناء، وذلك في سياق حديثهم عن الإعراب:" وجعلوا البناء يعنى الثبات ولزوم آخر كلمة حالة واحدة لفظا وتقديرا، فيما يعنى الإعراب تغير آخر كلمة بتغير العامل"[2]. فالبِنْيَة كلمة تعنى البناء أو المعمار أو الطريقة التي يشيّد بها مبنى ما.

أمّا في النقد الحديث فقد انتشر مفهوم البنية، وتمخّض عنه كما هائلاً من التعاريف، منها أنّ البِنْيَة هي:" البناء أو المعمار يتكون من عناصر مختلفة ترتبط فيما بينها بعلاقات وظيفية أو جمالية"[3]. تحفظ هذه العلاقات الوظيفية والجمالية للنصّ تماسكه، وتناسقه. إذا البنية نظام يفسّر ائتلاف العناصر المكوّنة للعمل الأدبي.

تصنف الرّحلة ضمن الكتابة الأدبية النثرية، والنثر لون من ألوان التعبير الأدبي يلتزم فيه الكاتب بالتعبير عن قضايا معينة دون التقيّد بالوزن والقافية.

يقوم هذا الفن الأدبي غالبا على أسس معينة تميّزه عن باقي الفنون النثرية الأخرى، وأهم عنصر ميّز أدب الرّحلات هو البِنْيَة. كل خطاب كيفما كان نوعه له شكل، وطريقة معينة في البناء:" والبناء له صلة وطيدة بزمنية الخطاب. إن خطاب الرحلة يتماهى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية، فهو يبتدئ بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها، وزمن الخروج ومكانه. وكلما انتقل الرحالة في مكان واكب الخطاب هذه الانتقالات والتحولات، وصولا إلى النهاية (نهاية الرحلة) والرجوع على نقطة البداية"[4].

---

[1] علي مراشدة، بنية القصيدة الجاهلية (دراسة تطبيقية في شعر النابغة الذبياني)، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2006، ص7.

[2] المرجع نفسه، ص7.

[3] عليمة قادري، نظام الرحلة ودلالاتها " السندباد البحري- عيّنة "، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006، ص192.

[4] سعيد يقطين، السّرد العربي مفاهيم وتجلّيات، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص207.

أعطت هذه البِنْيَة للرّحلات شكلاً خاصاً ومغايراً، ولكنّها اختلفت من رحلة إلى أخرى حسب المضمون، والهدف الرئيس الذي قصده الرّحالة من وراء خروجه من وطنه. فتعددت أنواع الرّحلات، وتعددت تبعاً لذلك بِنْيَاتها، ولاشك في أنّ هذه البِنْيَات زادت من رونق الرّحلات، فأضفت عليها طابعاً خاصاً جعلت القرّاء يتهافتون على قراءتها، والاستمتاع بحكاياتها المتنوّعة، وقصصها الطريفة.

تصنف رحلة أبا القاسم سعد الله ضمن الرّحلات العلمية، حيث يتسم هذا النوع من الرّحلات ببِنية خاصة، فارتياد آفاق العلم، ولقاء العلماء والأدباء السمة الأولى والمميّزة له، وسنحاول إلقاء الضوء على رحلته لدراستها، وتتّبُع مراحل سيرها، والطريق الذي نهجه الرّحالة وسار على خطاه.

1- المقدمة:

تُفتتح معظم الرّحلات بمقدمة، وهي:" أول ما يقع في السمع "[1]من الكلام، ولذلك وجب أن تكون عباراتها جذابة شائقة تأسر المتلقي؛ حيث أوصى بعض الأدباء الكتاب بضرورة تحسين مقدماتهم فقال:" أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان"[2] على الكاتب أن يفتتح حديثه بما يروق السامع، وتستحسنه أذنه، ويستسيغه ليكون سببا في مواصلة قراءته لما كتبه الكاتب، وليكون مطية لنجاحه، ولابُدّ أن تكتب المقدمة بأسلوب رشيق، وألفاظ وعبارات منتقاة، ومعان طريفة تنم عن مقدرة الكاتب.

افتتح سعد الله رحلته بالحديث عن الرّحالة الجزائريين، والطابع الذي اتسمت به كتاباتهم؛ فمنهم من غلب عليه الدافع الديني، ومنهم من غلب عليه الدافع التعليمي. غير أنّ اهتمام الجزائريين بهذا الفن كان قليلا بالمقارنة مع إخوانهم المغاربة.

أحب الرّحالة أن يتعقب أثار القدماء؛ فقام بعدّة رحلات لما في الرّحلة من فوائد كثيرة، فالسفر بالنسبة لسعد الله كالماء والهواء، ولا يستطيع أن تمر عليه سنة دون أن يتنقل فيها، ويدخل إلى بلد آخر، ويطّلع على أجوائه وأحواله خاصة العلمية منها:" لأنّ تغيير الهواء في حد ذاته يصقل الذاكرة ويجدد

[1] أبو هلال العسكري، كِتَابُ الصِّنَاعَتَيْن الكتابة والشّعر، مطبعة محمود بك، جادة أبي السعودة، ط1، 1320هـ، ص348.
[2] المصدر نفسه، ص344.

العاطفة ويبعث على الفضول الذي هو أساس المعرفة"[1]؛ وقد حدد الكاتب الهدف من رحلته، وهو هدف علمي محض، فركز على الأحداث والمناسبات الثقافية، وانكب على جمع ودراسة المخطوطات خاصة الجزائرية منها التي لم يذكرها في رحلته راجيا أن يُفرد لها دراسة خاصة بها، ويمكن أنّ نقول أنّ الباعث الحقيقي وراء سفر الرّحالة إلى المغرب هو العثور على مادة جديدة لكتابه" تاريخ الجزائر الثقافي".

2- بِنْيَة السَّفَر:

"وهي الهيكل الأساس في الرحلة، بها تندفع الأحداث إلى الأمام، وعليها يدور كل ما يكتب "[2]، ففي هذا السفر وصف الرّحالة سير الرّحلة، وما اعترضه في طريقه، وما ميّز أدب الرّحلات هو امتلاك أصحابها لقوة ملاحظة عجيبة مكّنتهم من التفوّق في فن الوصف، ورصد كل ما يحيط بهم سواء تعلق ذلك بالناحية الجغرافية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، فتحدثوا عن أحوال السكان والمدن والملوك والحكّام، والعلماء والأولياء، وما إلى ذلك من أمور تتعلق بالبلاد والعباد.

تمت رحلة سعد الله إلى المغرب في 29 جويلية 1937م على متن طائرة البوينغ التونسية، حيث استغرقت الرحلة بين مطار الدار البيضاء بالجزائر، ومطار النواصر بالمغرب ساعة وربعا، وكانت الساعة تشير إلى السادسة والربع عندما أعلنت المضيفة أن الطائرة ستبدأ بالهبوط .

وعندما خرج الرّحالة من المطار اتجه إلى الدار البيضاء في السيارة عمومية، وبعدها ركب سيارة أخرى لكي توصله إلى الرباط الذي كان وجهته منذ البداية، وفي أثناء الطريق أخذ الكاتب في تأمل الشوارع، وهي تتلألأ بالأنوار وبالأشكال الهندسية المتنوّعة التي تذهل الأنظار. ولما توقفت السيارة سلك سعد الله شارع محمد الخامس لينزل بفندق القولوا الواقع في شارع حمص المتفرع عن محمد الخامس. وعلى الرّغم من تعبه الشديد لم يستطع أن ينام إلا بعد التجوال قليلا في المدينة، ولما أحس بالإرهاق رجع إلا غرفته.

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص205.

[2] إسماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، ص10.

وفي صباح اليوم التالي خرج مبكرا، وقصد المكان الذي مشيه في الليل ليتأكد من صحة ما رأى، ومن المظاهر التي شدّت انتباه الكاتب تسمية بعض الشوارع التي تتفرع عن الشاعر محمد الخامس بأسماء مدن عربية عتيقة مثل: القاهرة، وعمان، ودمشق، وجدة، والطائف، والقدس، وبيروت، وحلب، وحمص، وهو تقليد أجاد فيه المغاربة، وهو مظهر من مظاهر العراقة والمحافظة على التراث العربي الإسلامي.

ولما أصبحت الساعة تشير إلى الثامنة توجه مباشرة إلى الخزينة العامة(المكتبة الوطنية) بحثا عن المخطوطات الجزائرية التي سافر من أجلها، حيث وجد في قسم الوثائق (المخطوطات) ضالته، ووجد أيضا التسهيلات اللازمة التي مكّنته من الإطلاع عليها، وهناك تعرّف على الشيخ مولاي الطاهر الذي أفنى حياته في الحفاظ على هذا الموروث.

على الرُّغم من ذهاب الكاتب إلى المغرب في فصل الصيف وهو وقت عطلة للمدارس والجامعات، وحرصه على تكريس كلّ وقته للبحث فتفادى الاتصال بالأصدقاء إلاّ أنّه التقى ببعض الأشخاص أمثال: الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات بالخزانة العامة، والذي أهداه مجموعة من أعماله الأخيرة.

ومن الجزائريين الذين التقاهم الآنسة نادية دوادي، والأستاذ محمود بوعياد، والأستاذ عبد الملك مرتاض، ومن الأساتذة المغاربة الكبار الذين رآهم الرّحالة في المكتبة: عبد السلام الفاسي، والأستاذ محمد حجي، والتقى في هذه الأثناء أيضا بالمؤرخ المصري الأستاذ عبد الله عنان.

ويبدي سعد الله تأسفه لعدم لقائه ومجالسته للأستاذ محمد المنوني حيث تعرّف عليه إلاّ في اليوم الأخير له في الخزانة العامة.

اعتاد الرّحالة على التجوّل في أرجاء المدينة كلّ مساء بعد أن ينتهي من المطالعة والبحث في النهار، ففي إحدى الأيام وهو يتجول قادته رجلاه إلى مكتبة كبيرة هي مكتبة الطالب لعبد القادر المكناسي، التي تحتوي على كتب كثيرة قديمة وحديثة، وفي هذه المكتبة التقى بالدكتور عبد الكريم كريم الذي أخذ سعد الله في جولة في الحي الشعبي حيث أراه المرتفع الذي دخل منه الفرنسيون إلى المغرب، وسور الأندلسيون الذي يحيط بالرباط، وحارة اليهود القديمة، وشارع سيدي فاتح، وبعض الفنادق حيث

كان سفراء وقناصل الدول الأجنبية ينزلون في العهود القديمة، كما تجوّل به في حي السويقة المليء بالخضر والبقالة والدباغة والذهب واللحوم، وبعد بضعة أيام التحق بهما الأستاذ حسن الزهراوي، وكان الدكتور كريم دائما مندفعا في أحاديثه لدرجة أنّه لا يترك المجال لغيره، وقد اصطحب معه ذات يوم سعد الله إلى المنزل ودعاه إلى الغداء.

ثم انتقل الكاتب إلى الحديث عن الدكتور عباس الجراري الذي تعرّف عليه سابقا في دمشق سنة 1971م، ودعاه إلى الغداء في منزله الواقع بحي آكدال (كثير الشجر)، وعرّفه على نواح كثيرة من المغرب الثقافي والاجتماعي، كما تفضل بالذهاب معه إلى المكتبة الواقعة في حرم القصر الملكي، وهناك تعرف أيضا على أشخاص آخرين، وباحثين من مغاربة ومشارقة وأوربيين، ورافقه أيضا لزيارة محمد بن عبد الله مدير مجلة دعوة الحق، والذي أهداه العدد الأخير منها.

أمّا يوم الأحد 13 أوت 1973م فكان يوم الدار البيضاء، حيث زارها الكاتب رفقة الجراري وأسرته التي تركها عند أصهاره، ثمّ خرج وإياه يتجولان في أرجاء المدينة، فقصدوا أوّلا حي درب السلطان المليء بالمكتبات.

أُعجب الكاتب بهذه المدينة فأخذ في وصفها ووصف المحيط أو بحر الظلمات، وبعدها رجع الرّحالة إلى منزل أصهار صديقه حيث تناولوا وجبة العشاء هناك. ودار حديث شيّق بينهم حول التقاليد الاجتماعية الجزائرية والمغربية، ليعودوا بعدها إلى الرباط في حوالي الساعة العاشرة.

أشار سعد الله إلى تعرّفه على والد صديقه، وهو الأستاذ عبد الله الجراري الذي استضافه مرتين في منزله، وجلس معه في مكتبة الكبيرة المليئة بالمخطوطات و المطبوعات الحديثة والقديمة. ثم تحدث الكاتب عن الجيل الجديد أو الشباب حاملي لواء العلم أمثال: أحمد شحلان الذي التقاه الرّحالة عدّة مرات في الخزانة العامة، وكان يسكن في نفس الفندق الذي كان ينزل فيه الرّحالة، وكثيرا ما ترافق مع بعضهما في الغدو والرواح، وفي المطعم والتجوال، كما زار معا صومعة حسان الشهيرة، وضريح محمد الخامس الذي أخذ الكاتب في وصفها وصفا شيّقا. ثم اتجها في المساء إلى مدينة سلا فوصفها، ووصف سوقها، لينتقل إلى الحديث عن قضية التعريب في المغرب، ووفرة الكتب، وتعدد المكتبات، وأسماء بعض المجلات الأدبية،

ثم أشار إلى بعض المخطوطات التي أثارت انتباهه، و التي لم تكن هدفه في البحث، وإنما ذكرها بغية الإفادة فقط.

كانت هذه، إذاً، رحلة سعد الله، فهي بمثابة السجل الذي نقل فيه كلّ ما شاهده وخبره عن أحوال بلاد المغرب وخاصة العلمية منها. وما رآه من مشاهدات مختلفة، ويمكن أن نقول أنّ رحلته جاءت جامعة لعدّة نواحٍ على الرُّغم من طغيان الجانب العلمي، يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

1/الناحية الفكرية والثقافية: وهي الطاغية في الرّحلة حيث تحدث عن العلم والعلماء، والكتب والمخطوطات والمكاتب.

2/ الناحية الاجتماعية: تناولت عادات أهل المغرب وأخلاقهم، ومأكلهم ومشربهم وملبسهم.

3/ الناحية الاقتصادية: البيع والشراء، والأسواق.

4/ الناحية الجغرافية: وصف البلاد ومناخها (الجو، الأنهار، البحار) إضافة إلى المنشآت العمرانية.

5/ الناحية التاريخية: اشتملت رحلته على بعض الفوائد التاريخية.

3- الخاتمة:

رجع سعد الله إلى وطنه الجزائر في 19 أوت 1973م بعد أن قضى عشرين يوما في بلاد المغرب، ولكنه لم يذكر ذلك صراحة في رحلته على غرار الرّحالين العرب الذين سبقوه، وإنّما استنتجنا ذلك عند حديثه عن الأستاذ محمد المنوني الذي لم يسعفه الحظ لمجالسته حيث تعرّف عليه في آخر يوم له في الخزانة العامة.

أنهى الرّحالة رحلته بالحديث عن المخطوطات التي لفتت انتباهه دون أن تكون هدفه الأساس في البحث، وإنما ذكرها لأنّها ربما تفيد باحثين آخرين. وأنّ ما عثر عليه من كتب التاريخ والآداب والرّحلات يفوق كلّ تصوّر ولو ذكرها كلها في رحلته لأثقل على القارئ، كما أشار إلى أنّ ما طالعه وقيّده عن كتابات الجزائريين هو الشيء الكثير، حيث يقول:" فحدث عن البحر ولا حرج، وهو بيت القصيد من كل رحلة، ولعلي أقدمه في مناسبة أخرى"[1].

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص234.

10/ مكوّنات الخطاب الرّحلي (رحلتي إلى المغرب لأبي القاسم سعد الله أنموذجا):

يتكون الخطاب الرّحلي من أطراف خطاب يمكن تحديدهم في عناصر، وهي: الوصف والسرد والمعرفة.

1- الوصف:

يُعدُّ الوصف مكوّنا هاما من مكوّنات الخطاب السردي، فهو أداته الأساسية وعنصرا مكمّلا لوظيفته الحكائية؛ حيث أنّ كل عمل سردي " يحتوي صورا من الحركات والأحداث، وهذه الصور هي التي تشكل السرد بمفهومه الدقيق، كما أنّ كل عمل سردي يشتمل على صور من الأشياء والشخصيات وهي التي تمثل في العهد الراهن ما يطلق عليه الوصف"[1] فالسرد أساس القصّ والمتحكم في الوصف، فلا سرد من دون وصف، وتجدر الإشارة إلى أنّ "رحلتي إلى المغرب لأبي القاسم سعد الله" مثلها في ذلك مثل غيرها من الرحلات الأخرى يلعب فيها الوصف دورا مهما، ويحتل حيزا كبيرا في بنيتها، ويقوم الوصف برصد غرائب ما يشاهده الرحالة، أو بتدقيق المشاهد التي يمرُّ بها وتصويرها تصويرا فنيًّا، وفي هذه الرحلة حرص أبو القاسم سعد الله على وصف كل ما وقعت عليه عيناه من أماكن (مدن، مكتبات، منازل، أحياء، شواطئ، وديان) وكتب وأشخاص مثقفين، ومناظر ومشاهد مختلفة، غير أنّنا نجده في خاتمة رحلته يقول: "ولعلي لو ذكرت هنا كل ما وقعت عليه عيناي من كتب الرحلات والتاريخ والآداب خلال رحلتي لأثقلت على القارئ، وحسبي هذه العجالة"[2] يبدو من هذا الكلام أنّها رحلة علمية بحتة، اقتصر فيها صاحبها على ذكر قليل من كثير تجنبا للإطالة والملل؛ يعني هذا أنّه راعى شعور القارئ.

فالمتأمل لهذه الرّحلة يجد أنّ الوصف فيها أخذ مسالك مختلفة ومتنوّعة، منها ما ركّز على وصف المكان بدقائقه وتفاصيله، ومنها ما عُني بوصف البيئتين الطبيعية والمتمثلة في الليل والقمر، والوديان، والمحيطات، والشواطئ، والاصطناعية المتمثلة في الأضواء، والسيارات، والنافورات...، غير أنّ وصف

[1] عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت(1998)، ص249.

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص234.

المكتبات والمخطوطات، والحديث عن الأساتذة والمثقفين الذين التقى بهم في المغرب كان له النصيب الأوفر من الاهتمام في هذه الرحلة، فعندما وصل الرحالة إلى المغرب، وركب سيارة من الدار البيضاء في اتجاه الرباط أخذ يصف كل ما رآه في طريقه، حيث يقول:" وكانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف عندما تحركت السيارة من الدار البيضاء في اتجاه الرباط، وقد سقط الليل، وبدأت أنوار المدينة تتلألأ، بعضها يشكل أسهما، وبعضها يشكل دوائر، وبعضها ينافس نجوم الليل أو بروق العواصف واللغة العربية فيها تنافس الفرنسية، وكانت الألوان المتعددة والأشكال الهندسية المتنوعة تكاد تخطف الأبصار وهي جميعا من دلائل التنافس والتأثير على المارة والسواح"[1] يقف هذا الوصف عند مشهد المدينة، ويرصد جمالها الليلي الذي عبّرت عنه كلا البيئتين الاصطناعية والطبيعية، فكل شيء هنا يبدو أنّه قائم على التنافس، فأضواء المدينة تنافس النجوم وبروق العواصف، والعربية تنافس الفرنسية، وهذا دليل على شدة تمسك المغاربة بلغتهم الأصلية.

ويمعن الرّحالة في وصف المكان، وهذا ما يبدو من خلال وصفه لجامع السنة في مدينة الرباط، يقول في ذلك: "وهو جامع ضخم وحديث مبني على الطراز الأندلسي- المغربي، وقد وجدت مكتوبا عليه أنّ الذي بناه هو مولاي محمد بن عبد الله سنة 1785م وأنّ الذي جدده هو الملك الحسن الثاني سنة 1969م، ويُضاء هذا الجامع ليلاً كما تُضاء صومعته العالية فيُرى من بعيد كأجمل ما تكون الرؤية... وتوجد على يمين هذا الجامع ثانوية مولاي يوسف (اليوسفية)"[2] ولا يقتصر الرحالة على وصف المكان بصورة مجملة، بل نجده يدقق في أجزائه وتفاصيله لدرجة أنّك تحسُّ وأنت تقرأ وصفه أنّ المشهد ماثل أمامك حقيقة، ومن ذلك قوله بمناسبة خروجه للتجول رفقة صديقه أحمد شحلان باتجاه صومعة حسان الشهيرة وضريح المرحوم محمد الخامس، يقول في فقرة وصفية لا تخلو من دقة فنية: " كانت الشمس قد غربت ولم يبق في الأفق إلاّ الشفق، وطلع من الشرق القمر الذي أخذ يكبر، وظهرت النجوم في السماء والمصابيح في الأرض، هنا في الرباط وهناك في سلا التي يفصلها (عن

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص206، 207.

[2] المصدر نفسه، ص208.

الرباط) وادي بورقراق، وظهرت مياه المحيط تغمرها حمرة الشفق. وصفحة وادي بورقراق تضيئها أشعة المصابيح والقمر. وعلى بعد رأينا القطار كأنّه خيط من الضوء يتحرّك وسط الظلام الذي بدأ يلف الأفق البعيد قال صاحبي إنّه قطار طنجة قادما إلى سلا.....دعني أتأمل دعني!؟"[1] يبدو من هذا النّص أنّ الرحالة منبهر بجمال مدينة الرباط، ولا سيما في وقت الغروب عندما أخذت الشمس في الاختفاء لتحلّ محلّها النجوم والقمر وأضواء المصابيح، ويستعمل الرّحالة عنصر الخيال المتمثل في تشبيه القطار بخيط ضوئي يتحرك وسط الظلام، ويتعدى ذلك إلى وصف المكان المتمثل في جامع محمد الخامس. إنّه وصف حيٌّ تغلب عليه الدقة في تصوير المشاهد، وفي رسم صورة فنية متكاملة لتغيّر الأشكال والألوان، ويستعمل الرّحالة التشبيه في وصف مظاهر العمران مثل المنازل الفخمة البيضاء بالرباط، يقول في ذلك:"... وقد وجدتني خارج سور المدينة القديم في حي غارق في الأشجار المعشوشبة المخضرة، وتطل منه المنازل البيضاء الناصعة كأنّها كثبان الثلج في غابة من غابات الشمال"[2] ويتجاوز الرحالة في وصفه هذه المظاهر إلى مظاهر أخرى تخص الجانب الاجتماعي ولا سيما العادات والتقاليد سواء في طريقة الطعام أو في طريقة الجلوس أو في طريقة بناء المنازل، يقول الرّحالة عند تناوله لوجبة العشاء في منزل آل الصائغ:" وتناولنا العشاء في منزل آل الصائغ على الطريقة المغربية التقليدية، بغسل الأيدي قبل وبعد الأكل، ثمّ تناولنا الطعام بمقدمة الأصابع في طبق واحد موضوع على صينية كبيرة لامعة، بينما نحن جلوس على الحشايا والوثيرة... ومنزل آل الصائغ عبارة عن مغنى (فيلا) ضخمة من طابقين، وفي القاعة حشايا جلدية ناعمة، وقد زينت الجدران بالزليج الملون المشكل بمختلف الأشكال الهندسية. وفيها أجزاء منقوشة بنقوش مغربية- أندلسية. وقد علقت ثريا جميلة كبيرة وسط القاعة، وفي طرفي القاعة مقصورتان فيهما أيضا حشايا من نوع ولون آخر..."[3] وهذا غيض من فيض من الأوصاف الجميلة والدقيقة التي وصف بها أبو القاسم سعد الله ما وقف عنده من مشاهد في الطبيعة أو في العمران وغيرها.

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص226-227.

[2] المصدر نفسه، ص209.

[3] المصدر نفسه، ص223.

2- السرد:Narrative

يمثل السرد إلى جانب الوصف مكونا هاما من مكونات الخطاب الرحلي، فهو الأساس الذي تُبنى عليه الرحلة، والمسير لأحداثها ومجريات أمورها، ويتكوّن السرد من ثلاثة عناصر هي: الحاكي (الرحالة) المحكي (الخطاب الرحلي) المحكي عنه (السفر).

لغة السرد في أدب الرّحلة:

السَّرْدُ في اللغة: تَقْدِمَةُ شيء إلى شيء يأتي متَّسقاً بعضه في أثر بعض متتابعاً. ويقال: سَرَد الحديث ونحوه يَسْرُدُهُ سَرْداً إذا تابعه. وفلان يَسْرُد الحديث سرداً إذا كان جَيِّد السياق له. والسَّرد: المتتابع[1]. فالسرد هو القص والحكي لأحداث متتابعة ومتعاقبة، فيها ترابط وتناسق، لكي تكون الحكاية حسنة وجيّدة تشُدُّ انتباه السامع.

أمّا اصطلاحاً فإنّ السرد Narrative : " هو الطريقة التي تحكى بها القصة. ذلك أن الحكي يقوم على دعامتين: أولهما أن يحتوى على قصة تضمّ أحداثاً، وثانيهما أن يعين الطريقة التي تحكى بها القصة. وهذه الطريقة هي السرد "[2]. فالسرد هو الطريقةالتي يعبّر بها الكاتب عن فكرته وعمّا يجول في خاطره، وبتعبير أدق هو المبنى الحكائي الذي " يتعلق بتنظيم تلك الأحداث في نسق خاص، بكيفية خاصة، من خلال سارد يتوجه به إلى مسرود له "[3].

نقصد بالأحداث القصة أو الحكي الذي يُبنى عليه السرد الذي يقتضي وجود شخص يحكي، وشخص يُحكى له، وقصة محكية، مع العلم أنّ القصة الواحدة يمكن أن تُحكى بعدّة طرق ولهذا فإنّ:" السرد الذي يُعْتَمَدُ عليه في تمييز أنْماط الحَكْي بشكل أساسي"[4]، فهو أساس القصة، ومُسَيّرُ أحداثها، ومجريات أمورها.

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص211.

[2] يادكار لطيف الشهرزوري، جماليّات التلقّي في السَّرْد القُرآني، دار الزمان، دمشق، سوريا، ط1، 2010، ص44.

[3] محمد مشرف خضر، بلاغة السّرد القصصّي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه في الآداب، إشراف: عبد الرحيم محمود زلطا، محمد عبد المطلب مصطفى، جامعة طنطا، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، الإسكندرية، ص17.

[4] حميد لحميداني، بنية النص السّردي (من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1991، ص45.

يُعرِّف سعيد يقطين السرد بأنّه: " فعل لا حدود له. يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية، يبدعه الإنسان أينما وجد وحيثما كان "[1]. هذا الكلام يعنى أن السّرد لا يرتبط بزمان ومكان معينين، وإنّما أحداث القصة ومجرياتها هي التي تؤثر في نمط الحكي، فالراوي يتنقل مع القصة من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان حسبما تفرضه الأحداث والشخصيات.

وبما أنّ الرّحلة لون من ألوان التعبير الأدبي النثري، فإنّها تخضع إلى نمط السرد والحكي الذي يحدِّد وجود راوٍ يسرد مجريات رحلته وتنقلاته في المعمورة:" تفرض الرحلة بطبيعتها لوناً من السرد الفنّي المعتمد على الوصف الخارجي للمشاهد وعرض الحوادث، فهي تفيد من طاقات القصة أحياناً، وتعتمد إلى جانب السرد المباشر التقريري أحيانا أخرى، وتنحو أحياناً نحو الصورة التي يتدخل فيها الرّحالة عبر رسم المشاهد والحوادث "[2]. فالرّحلة تخضع للسرد الذي يتحكم هو بدوره في الوصف لأنّ الرّحالة يرصد كلّ ما اعترض طريقه بالوصف، والملاحظة الدقيقة، والنقل المباشر والموضوعي للأحداث التي عايشها، فالرّحلة:" من الأشكال التي تحفل بالثراء والتنوع باعتمادها على السرد استكشافاً لخبايا عوالم الحكي المشدود إلى تجارب وخيالات تنبني وترتسم سردياً، باعتبار السرد هو الصيغة الطبيعية في النثر الفني "[3].

فالسرد هو المتحكم الأساس في مجريات الرّحلة، وتطور أحداثها منذ بدايتها إلى غاية عودة الرّحالة إلى بلده، وإخباره بنهايتها.

أ- الحاكي أو الراوي (الرحالة):

وهو الذات المركزية التي تقوم بفعل الرحلة، وبتلفيظ تلك الرحلة، وبما أنّ رحلة أبا القاسم سعد الله هذه رحلة شخصية قام بها الرّحالة ذاته فإنّنا نجد الذات حاضرة باستمرار، كما نلاحظ أيضا أنّ ضمير المتكلم المفرد هو الضمير الذي تُحكى به الرّحلة، يقول الرحالة عند وصوله إلى المطار بالمغرب:"... خرجت من المطار وأخذت مقعدا في السيارة العمومية التي تصل المطار بمدينة الدار البيضاء، بعد أن

[1] سعيد يقطين، الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997، ص19.

[2] عبد الله بن أحمد بن حامد، " الرّحلات المكية الحديثة: رؤية في بناء الرحلة واتجاهاتها "، حوليّة كليّة المعلّمين، أبها، ع10، 1427هـ، ص141.

[3] شعيب الحليفي، الرحلة في الأدب العربي"التجنيس، آليات الكتابة، خطاب متخيل"، ص280.

دفعت مقابل ذلك خمسة دراهم... وفي آخر المطاف وجدت المحطة مزدحمة بالمسافرين إلى مختلف الاتجاهات"[1] يبدو أنّ المؤلف قام بالرّحلة لوحده، وما يؤكد صحة ذلك الضمير المتصل (تاء المتكلم) التي تُبيّن طغيان الجانب الذاتي على غيره من الجوانب الأخرى، وكما يظهر ذلك جليًّا من خلال تركيز الرّحالة على ذكر بعض لقاءاته مع الشخصيات المثقفة في المغرب، مثل قوله:"... ومع ذلك التقيت بعدد من المغاربة والجزائريين هناك بطريق الصدفة. من هؤلاء الأستاذ محمد الكتاني رئيس قسم المخطوطات بالخزانة العامة، الذي التقيت به عند خروجنا من المكتبة منتصف النهار. وقد سبق لي أن عرفت الأستاذ الكتاني في مؤتمر كتاب المغرب العربي الذي انعقد بطرابلس بليبيا سنة 1969م"[2] فالرحالة لا يرحل بجسده فقط بل بعقله وفكره وقلبه ووجدانه أيضا، فالراوي في الرحلة هو المؤلف ذاته، وهي إحدى خصائص الكتابة الرحلية.

ب- المحكي (الخطاب الرّحلي):

لكلّ خطاب طريقته الخاصة في البناء، بها يتميّز عن غيره من الخطابات الأخرى، وبما أنّ خطاب الرّحلة موضوعه هو السفر الذي قام به الرّحالة، فإنّ هذا الخطاب يتماهى مع الرّحلة وعوالمها، ويواكبها من البداية إلى النهاية، فهو يبتدئ بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها، وزمن الخروج ومكانه، وكلّما انتقل الرّحالة من مكان لآخر واكب الخطاب هذه التحولات وصولا إلى النهاية والرجوع إلى البداية، وقد تمّت الإشارة إلى ذلك فيما سبق من صفحات.

ج- المحكي عنه (السفر):

عرف العرب السفر ومارسوا الترحال في شبه الجزيرة العربية، وقاموا برحلتي الشتاء والصيف المذكورتين في القرآن الكريم [سورة قريش، الآية 2]. اختلفت دوافع السفر بين دوافع تجارية وأخرى دينية وأخرى علمية، والسفر المقصود هنا هو السفر الذي قام به الرّحالة فعليًّا، وكما يبدو فإنّ السفر في رحلة أبي القاسم سعد الله كان سفرا علميًّا وصف فيه إلى جانب المكتبات والمخطوطات والأساتذة بعض

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص206.

[2] المصدر نفسه، ص209.

المناظر والأماكن التي استهوته هناك، وكما يبدو من خلال الرّحلة أنّ سفره كان من مدينة الجزائر إلى مدينة المغرب على متن الطائرة، يقول في ذلك:" وقد استغرقت الرحلة على طائرة البوينغ التونسية، بين مطار الدار البيضاء بالجزائر ومطار النواصر بالمغرب، ساعة وربعا، وكانت الطائرة قد حلقت بنا فوق سحب كثيفة أخذت في الانقشاع كلما توغلنا في اتجاه المغرب، وكانت تطير بمحاذاة البحر، ثمّ حوالي منتصف الطريق انحرفت إلى اليسار وتعمّقت في المناطق الداخلية بالمغرب"[1] فالسفر كما يبدو من خلال هذه الفقرة أنّه لا يركّز على ذكر وسيلة السفر فحسب، بل يتعداها إلى ذكر مخطط السير حتى في الجوّ، وبالتالي يصبح السفر هو الناظم لمختلف مكوّنات الرّحلة الأخرى من سرد ووصف وأخبار...، فهيمنة مكوّن السفر لا يعني أنّ الرّحلة تخلو من باقي المكوّنات الأخرى، بل تعني أنّ السفر هو العنصر المؤثر لكل العناصر والمكوّنات الأخرى، ومن النادر جدّا وجود رحلة اقتصر فيها مؤلفها على هذا المكوّن فقط.

3- المعرفة:Savoire

تُعدُّ الرّحلات من أغنى الفنون النثرية بالمعارف المتنوّعة، منها ما هو ديني، وما هو تاريخي، وما هو جغرافي، وما هو أدبي، وما هو اجتماعي، ممّا يُكسب الرّحلة قيمتها العلمية ويجعل منها قِبلة للباحثين المختلفي المشارب، واهتمام الرّحالة في رحلته ينصبّ على مجال تخصصه وتكوينه الثقافي، وهكذا نجد الرّحالة المؤرخ يولي اهتماما أكبر للمعرفة التاريخية، والأديب يُعنى كثيرا بالمعرفة الأدبية وهكذا دواليك، وبالنظر إلى رحلة أبي القاسم سعد الله نجدها اهتمّت كثيرا بالجانب العلمي، بل هي رحلة علمية بحتة، والدليل على ذلك ما ساقه المؤلف في بداية حديثه عن سبب رحلته هذه، وقد تمظهرت المعرفة في هذه الرّحلة في مظهرين الأوّل وهو الطاغي على الرّحلة (الجانب العلمي المعرفي الخاص بالرحالة في حد ذاته) والثاني وهو موجود في معظم الرّحلات تقريبا ألا وهو المعرفة الجغرافية. إنّ المتصفح لرحلة أبي القاسم سعد الله هذه يجد أنّها لا تكاد تخلو صفحة من صفحاتها من ذكر أسماء المكتبات المغربية أو الأساتذة الذين التقى بهم هناك، وعمال المكتبات والمخطوطات العربية الأصيلة وغيرها، لعلّ أوّل ما يلفت انتباه

[1] تجارب في الأدب والرحلة، أبو القاسم سعد الله، ص206.

القارئ لهذه الرّحلة هو ذكر صاحبها لأسماء بعض الشوارع المغربية التي أطلق عليها أصحابها أسماء بعض البلدان العربية، ولا سيما المشرقية منها، مثل: القاهرة وعمان ودمشق وجدة والطائف والقدس وبيروت وحلب وحمص[1] بالإضافة إلى أسماء بعض الشعراء العرب مثل شارع أبو نواس الذي كان الفرنسيون يطلقون عليه اسم ألفريد دي موسيه، وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدل على تأثر المغاربة بالمشارقة، وبعدها يستمر الرّحالة في ذكر الجانب المعرفي الثقافي، ويبدو ذلك جليّا من خلا كوكبة من أسماء لامعة في مجال الأدب والتاريخ التقى بهم الرّحالة في المغرب، ومن هؤلاء الأستاذ إبراهيم الكتاني، والآنسة نادية داودي، والأستاذ محمود بوعياد، والأستاذ الهاشمي التجاني، وعبد الملك مرتاض، والأستاذ عبد السلام الفاسي، والأستاذ محمد حجي، والأستاذ عبد الله عنان وغيرهم، وما يؤكد علمية هذه الرحلة قول صاحبها:" كنت حريصا أثناء إقامتي بالمغرب على توفير كل وقتي للبحث الذي جئت من أجله، لذلك تفاديت لقاء الأشخاص والاتصال بالأصدقاء... ومع ذلك التقيت بعدد من المغاربة والجزائريين هناك بطريق الصدفة. من هؤلاء الأستاذ إبراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات بالخزانة العامة... وقد زرته في اليوم التالي بمكتبه بالخزانة فوجدته محاطا بأكداس من المخطوطات القديمة وصناديق البطاقات حتى خُيِّلَ إليَّ أنّ الكتب هي طعامه وشرابه وكساؤه ووطاؤه، وقد أهداني بهذه المناسبة بعض أعماله الأخيرة"[2] ويتعدى الرّحالة ذكر لقاءاته مع المثقفين إلى الحوار والنقاش الذي دار بينه وبينهم، ومن ذلك قوله:" والأستاذ الزهراوي يعرف الكثير عن الجزائر لأنّه كان قد عاش فيها وعلّم بالزاوية السنوسية بمدينة مستغانم وكان قد قرأ لكتّابها وعرف وجهات نظرهم... وقد جلسنا في بهو الفندق وأحضر لنا الشاي الأخضر وسهرنا حتى قرب العاشرة ليلا، وتناولنا موضوعات شتى كالتأليف المدرسي والتعريب في الجامعة ونشر الكتب وحوادث التاريخ والرحلات"[3] ويظهر الجانب العلمي لهذه الرّحلة أيضا في وصف صاحبها للمكتبات التي زارها في المغرب، منها مكتبة الطالب، والمكتبة الملكية، والمكتبة الوطنية (الخزانة العامة) وذكره لأسماء بعض المكتبات الموجودة في مدينة الدار البيضاء، منها: دار الإرشاد ودار الوحدة

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص208.

[2] المصدر نفسه، ص209، 210.

[3] المصدر نفسه، ص216.

ودار الثقافة ودار إحياء علوم الدين ودار الفكر ودار الكتاب[1] يقول في معرض حديثه عن المكتبة الملكية:" تقع في حرم القصر الملكي نفسه. وقد علمت أنّها كانت مكتبة خاصة بالقصر ولم تفتح أبوابها للباحثين إلاّ في السنوات الأخيرة"[2] كما نجده يتحدث في خاتمة رحلته عن حركة التعريب بالمغرب، وهن الكتب التي وجدها هناك وعن المخطوطات، يقول في ذلك:" ومن الكتب المخطوطة التي لفتت انتباهي دون أن تكون هدفا أساسيا لبحثي كتاب فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الرحلة السعيدة إلى قسنطينة والزاب لإبراهيم بن أبي عبد الله النميري المعروف بابن الحاج... وهناك كتاب مخطوط ضخم بعنوان تحبير السياسة في تدبير الرياسة ويُسمّى أيضا بدائع السلك في طبائع الملك تأليف العالم المؤرخ محمد بن علي بن الأزرق الأصبحي الأندلسي والنسخة التي اطلعت عليها تعود إلى سنة 1272هـ وهي بخط جيد... ورأيت لأبي القاسم الزياني كتابه الترجمان المعرب نصفه بخط المهاجر الجزائري أبي حامد العربي المشرفي"[3] يبدو أنّ رحلته اتسمّت بطابع علمي معرفي، فجمع المخطوطات والاطِّلاع عليها ومناقشة المثقفين في مسائل ثقافية كان الشغل الشاغل للرّحالة في رحلته هذه، وتتعدى بذلك رحلته المعرفة الثقافية والأدبية إلى المعرفة الجغرافية، فلا تكاد تخلو نصوص الرّحلة بشتى أنواعها من إشارات جغرافية تتعلق ببلاد الانطلاق والعبور، وبما أنّ الرّحلة نقلة في الزمان والمكان، وبهذه الشاكلة تحضر في رحلة أبي القاسم سعد الله معطيات جغرافية متعددة، منها ما يتمحور حول المستوى المكاني (وصف المكان وذكر المسافة بين مدينة وأخرى)، ومنها ما يتمحور حول وصف الطقس، يقول في وصف طقس مدينة الرباط:" وكان طقس الرباط أكثر لطفا من جو عاصمة الجزائر الرطب"[4] وفي تقديره للمسافات بين بعض المدن المغربية يقول:" المسافة بين الدار البيضاء والرباط حوالي تسعين كيلومترا"[5] كما نجده يصف الأماكن التي مرّ بها في أثناء سفره إلى مدينة الدار البيضاء، يقول:" فقد توجهت إليها رفقة

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص222.

[2] المصدر نفسه، ص219.

[3] المصدر نفسه، ص231- 233.

[4] المصدر نفسه، ص208.

[5] المصدر نفسه، ص207.

صديقي الجراري بسيارته...وأخذنا طريق الصخيرات، ومررنا على وادي ايكم ووادي شراط ووادي المالح. وظهرت لنا مدينة المحمدية على بعد قريب. كما مررنا على قرية بوزنيقة... وكان الطريق جيدا والأرض منبسطة ما عدا بعض التعاريج القليلة عند عبور جسور الوديان المذكورة"[1].

تصف هذه الفقرة الطريق وصفا دقيقا مركزة على معطيات جغرافية؛ حيث يحدد الرحالة اتجاه مدينة الدار البيضاء، ويصف الوديان التي مرّ بها، ونوعية الطريق وشكلها، وهذه المعطيات لا تخلو من فائدة للقارئ، وبهذا تحقق الرّحلة هدفها الديداكتيكي إنّها تسعى لتعليم بعض الأشخاص بعض الأشياء التي ربّما كانوا يجهلونها.

وفي الأخير يمكننا القول أنّ هذه الرّحلة تميّزت بمجموعة من الخصائص نجملها في النقاط التالية:

- اعتمد الكاتب في نقل الأخبار على مشاهداته الشخصية.

- أعطى اهتماما بالغا للناحية العلمية، فرحلته تصنف ضمن النوع العلمي البحت (حيث ذكر الأساتذة، والكتب والمكتبات والمخطوطات)، حتى أسلوبه جاء علميا دقيقا بعيدا عن الغموض والتعقيد.

-اعتمد السّرد أسلوبا لحكاية الأحداث، ووصف المواقف والشخصيات.

- وظّف المعرفة في رحلته، وهي السمة المميّزة لهذا الصنف الأدبي، حيث نجد الناحية الجغرافية، والاجتماعية، وحتى التاريخية حاضرة في رحلته.

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص221.

11/ أدبية الرحلة 1:

ظهر مصطلح الأدبية كمصطلح نقدي في الربع الأوّل من القرن العشرين، وذلك حينما ظهرت رؤية نقدية للحركة الشكلانية الروسية حيث حملت طرحا جديدا للأدب، فبدأت تتبلور كمنهج جديد في دراسة الأدب. كان بمثابة رد فعل على التيار الإيديولوجي الذي بصم دراسة الأدب[1].

يُعدُّ جاكبسون أول من اصطلح "الأدبية" على الخصائص التي تميز الأدب عن غيره؛ إذ يقول" ليس الأدب في عمومه هو ما يمثل موضوع علم الأدب، إنّ موضوعه هو الأدبية، أي ما يجعل من أثر ما أدبيا"[2].

وقدم بوريس اخنباوم تعريفا أكثر تفصيلا للأدبية حينما اشترط " أنّ موضوع العلم الأدبي يجب أن يكون دراسة الخصيصات النوعية للموضوعات الأدبية التي تميزها عن كل مادة أخرى"[3]. فالإلحاح على الخصائص التي يتميز بها الأدب عن غيره، هو سعي لتحرير الأدب من المواضيع غير الأدبية التي ألصقتها به مختلف المناهج وكادت تطغى عليه.

وقد ظل البنيويون متمسكين بالطرح الأوّلي معتبرين منهجهم علما، والأدبية موضوعا له، مركزين على كيفيات ومواضع اكتشافها في العمل الأدبي، فازدهر مصطلح الأدبية لديهم وشاع ما يعرف بأدبية الأدب[4].

ولما استفاد البنيويون الفرنسيون على الخصوص من الفتوحات العلمية في اللغة، استثمروا بعض مفاهيمها وثنائياتها، واقروا أنّ عملية البحث عن الأدبية" تبدأ من منطلق اللغة لا من منطلق وراء اللغة"[5]، وبذلك انتقل البحث إلى استجلاء مكامن هذه الأدبية التي أجمعوا أنّها لن تكون إلا داخل

[1] ينظر: حميد لحميداني، بنية النص السردي، المركز العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط3، 2003، ص11.

[2] سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، (د، ط)، 1997، ص13.

[3] المرجع نفسه، ص13.

[4] ينظر: صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1997، ص85، 86.

[5] المرجع نفسه، ص86.

العمل الأدبي، وبصفة أدق داخل " الخطاب الأدبي" لتصير الأدبية بذلك نظرية حدد موضوعها " تحديدا أكثر دقة إذ أصبح الخطاب الأدبي وليس الأدب بصفة عامة موضوعا للأدبية"[1].

إذا كانت الدراسات النقدية الحديثة في بداية اشتغالها على الأنواع الأدبية، تهتم بإرساء المفاهيم الاصطلاحية والقواعد التنظيرية، فتقوم بتصنيف السياقات من خلال " المكونات الداخلية للنصوص التي ترد فيها"[2]، مميزة بذلك بين مختلف الخطابات الأدبية وغير الأدبية ثم تميز داخل الخطاب الأدبي – من خلال هذه المكونات– أنواعا من الخطابات كالخطاب الروائي والخطاب الشعري والخطاب قصة[3]، فإنّ كثيرا من الدراسات التي تلتها لم تعد ترى في ذلك ضرورة وذلك نظرا لتأصيل مفهوم الخطاب، وربطه بهذه الأنواع الأدبية إلى حد الذي أصبح فيه مصطلح الخطاب الروائي، أو خطاب القصة أو الخطاب الشعري بديهيات لا تحتاج إلى اثبات.

غير أنّ توقفنا عند المفاهيم الأولية للخطاب، ينطلق من الإشكال الإجناسي الذي ما زال مقترنا بالرحلة، والذي يرتبط بكيفية صدور خطابها وتكوّنه، ذلك أنه ناتج عن فعل الانتقال من مكان لآخر، في مدة زمنية معينة، وعليه يجدر أن نميز بين الرحلة كفعل والرحلة كخطاب.

إنّ للرّحلة بعدين: مادي وكتابي: أي الرحلة حركة في الفضاء من قبل شخص واقعي ينتقل من مكان لآخر في زمن محدد، مستكشفا تلك الأمكنة ومكوناتها، ثمّ يكتب هذا الشخص عن هذه الرّحلة معرفا بما شاهده، وعايشه من أماكن وأشياء وبشر وسلوك وكل ما رأى أنّه جدير التدوين؛ فالجميع متفق حول هذه المسألة، ويأتي اختلافهم حول تجنيس هذه الظاهرة الاستكشافية المتعددة الأبعاد والعناصر، فهل هذا الشكل التعبيري ينتمي إلى الأدب؟

لا ينكر أحد أهمية القيمة العلمية لما تحويه الرحلة من معلومات وحقائق تفيد الجغرافي والتاريخي وعالم الاجتماع والأنثروبولوجي وغيرهم. إلا أنّ الاستراتيجية التي يتبعها النقد الأدبي في التعامل مع الرحلة يجب أن يختلف عن كل هؤلاء.

---

[1] سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص14.

[2] سارة ميلز، الخطاب، تر: يوسف يغول، منشورات مخبر الترجمة، جامعة منتوري، قسنطينة، ط1، 2004، ص7.

[3] ينظر : ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الأمان، الرباط، ط2، 1987، ص13.

فالنقد عندما ينظر إلى الأدب لا يقف عند حدود المعنى والمضمون، وإنّما كيفية قول المعنى الذي يجعل منه أدبا، ومن هنا فما يشغل النقد الأدبي – قبل استكشاف المعرفة التي تقدمها الرحلة – هو أدبية الرّحلة؛ وتتمثل الأسئلة المركزية في : هل الرحلة شكل أدبي؟ ما هي مقوماتها الأدبية؟ وإلى أي جنس أدبي يمكن أن نصنفها، وبأي استراتيجية يمكن قراءتها؟ هذه هي الأسئلة التي يجب أن يجاب عنها في مسألة تصنيف الرحلات من منظور الأدب والنقد.

لقد خلط كثير من الباحثين، منهجيا، بين مكونات الرحلة وأدبية الرّحلة، وبين دراسة المضمون في إطار الشكل وبين دراسة المضمون في إطار الحقل، فالأنثروبولوجي والجغرافي وعالم الاجتماع وغيرهم من أصحاب المعارف يدرسون الرّحلة في إطار الحقول المعرفية التي ينتمون إليها؛ فالرحلة بالنسبة إليهم عبارة عن وثيقة تاريخية تفصح عن معلومات ومضامين وقيم، أما النقد الأدبي فنظرته مختلفة؛ فمنذ تأسيس الشكلانيين الروس مفهوم الشعرية أو الأدبية لم يترك الباب مفتوحا للتخمين والانطباع عن قضية الأدب، فقد جعلوا الأدبية أو الشعرية بحا في السمات أو الخصائص التي تجعل من قول ما أدبا[1].

استنادا إلى هذا المفهوم فمعظم من تحدث عن الرحلة انصرف إلى مقومات خارجية لا تحقق أدبية الرحلة، فالوثائقية وتخييل الآخر أو حواره، ووصف المكان وتصويره، واكتشاف الثقافات والتعرف عليها كل ذلك لا يمت إلى الأدبية صلة؛ على الرغم من أهميته في التعريف بالرحلة لا أدبيتها.

فإذا أردنا أن نحدد بشكل قاطع علاقة الرّحلة بالأدب وأجناسه علينا التوجه إلى تحديد المحور الذي يجب النظر إليه من بين محاور الرّحلة.

فالرّحلة تضم بعدين مهمين: الأول هو الحدث المادي للرحلة بوصفها تنقل وارتحال في الفضاء والأمكنة، والوجه الثاني الصياغة اللغوية للرّحلة، أي الخطاب بوصفه كتابة عن ذلك الحدث الذي صار في الماضي، فالأدبية لا تشغل نفسها بالبعد الأول، فالأدبية يهمها طريقة صياغة الخطاب، ومن هنا نركز

[1] ينظر: مجموعة مؤلفين، نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانيين الروس)، تر: إبراهيم الخطيب، المغربية للناشرين المتحدين ومؤسسة الأبحاث العربية، ط1، 1983، ص30.

على الخصائص والسمات التي تحقق أدبية خطاب الرّحلة، فلا يهمنا مصداقية الرّحلة والمعلومات والأزمنة كثيرا؛ لأنّ الأدبية هي طريقة القول وليس صدق القول.

فالرّحلة، من منظور السرديات، صيغة لغوية لها سماتها الأسلوبية التي تميّزها عن غيرها من الأشكال التعبيرية، وأن المضامين والقيم ما هي إلا نتيجة لهذه الصيغة، وهذا الاختيار الأسلوبي؛ فهي حكاية يسردها راو محدد بصيغة وأسلوب محددين، وزمن معين، وأشخاص وأحداث، وفضاء كلي، وأمكنة متنوّعة.

الناقد الأدبي تحكمه أعراف الحقل النقدي التي تشكلت عبر صيرورة طويلة، أعراف شكّلت الإطار العام الذي يسمح للناقد باختيار استراتيجية في التعامل مع الأشكال التعبيرية سواء أكانت استراتيجية منجزة ومتشكلة في منهج نقدي واضح أم بابتكارات جديدة تمثل تطورا لحقل النقد. هذا الاتجاه في التعامل مع الرّحلة يقتضي تجنيس الرّحلة ضمن حقول المعرفة الإنسانية، ثم تجنيسها داخل حقلها المعرفي، فعندها القول بأنّ الرّحلة تنتمي إلى حقل الأدب يعني أنها تنتمي إلى حقول المعرفة الإنسانية، وكون خطاب الرّحلة نصا أدبيا فإنّ ذلك يستوجب تجنيسه داخل حقول الأدب وأنواعه.

إذا فأدب الرّحلة شكل أدبي له خصوصياته التي تشير إلى إضافة نوع أدبي جديد يسمى أدب الرّحلات، نوع يشبه الرواية من تنوع عوالمه ولكنه يختلف عنها من حيث تقنيات السرد التي يهيمن عنصر الزمن وتنوع إيقاعه في الرواية. وتقترب من السيرة الذاتية وأدب المذكرات من حيث تطابق الراوي والمؤلف وواقعيته، وتختلف عنهما في طريقة التبئير، ففي الرحلة، على الرغم من وجود التبئير، فإنّ السرد يراعي الموضوعية المرتبطة بمسائل خارجية تتمثل في هدف الرّحلة.

كذلك في مسألة تدوين الرّحلة يكون غالبا في أثناء السفر أو بعد نهاية الرحلة مباشرة؛ خلافا لأدب المذكرات والسيرة الذاتية التي تتمحور حول استدعاء الذاكرة من قبل المؤلف.

ومهما يكن من أمر فإنّ خطاب الرّحلة شكل تعبيري يصلح أن يمثل جنسا أدبيا من أهم ملامحه تعدد الملامح الشكلية، فهو يستضيف، كما الرواية، كما هائلا من الأساليب والصيغ والخطابات.

وبنظرة فاحصة فإنّ خطاب الرّحلة تمثيل سردي لحكاية واقعية يرويها شخص بضمير الأنا أو النحن أو الهو، وهذا يعني توافر الأسس العامة للسرد الذي هو " تمثيل لحدثين أو موقفين حقيقين أو متخيلين في ترتيب زمني، وكل منهما لا يفترض الآخر ولا يستلزمه"[1]، أو هو "تمثيل لأحداث ومواقف فعلية أو افتراضية متسلسلة زمنيا"[2].

ومن هنا يمكن الذهاب إلى أنّ خطاب الرّحلة جنس أدبي له قدرة هائلة على تمثيل الأحداث زمنيا. وتمثيل الأحداث وفق التسلسل الزمني يحقق التتابعية السردية، ويفترض حضور الراوي الذي ترتبط بوجوده مجمل آليات السرد الموظفة في الحكايات المنجزة أو المحتملة قديما أو حديثا.

فالرحلة نص سردي قابل للإدراك والتحليل والمساءلة من خلال السرديات بوصفها نظريات تعنى بدراسة النصوص ذات الطابع الحكائي.

[1] جيرالد برنس، علم السرد (الشكل والوظيفة في السرد)، تر: باسم صالح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (د، ت)، ص10.
[2] المرجع نفسه، ص6، 7.

12/ أدبية الرّحلة 2:

المقصود، إذا، بالأدبية ضبط المحددات النوعية لهذا الجنس. ولعله من البديهي أن نؤكد، مرة أخرى، استقلال النص بخصائصه المميزة مع ارتباطه، في الوقت ذاته، بالحقل الأدبي السائد. فالرحلة تحقق أدبيتها باقترابها من الأدب وبالابتعاد عنه في آن واحد.

ملامح هذه الأدبية[1]:

1- من أهم محددات الأدبية في المتن الرحلي، هيمنة بنية السفر.

2 – يكون السفر في أدب الرّحلة قصديا تقصد فيه الرحلة لسبب أو الآخر، والسفر القصدي هو الذي يجعل من المتن الرحلي حاملا لخصائصه النوعية سواء على مستوى المسار العام للرحلة، أو على مستوى طبيعة علاقة النص بالرحلي بالنصوص الأخرى. يقول عبد الفتاح كيليطو في هذا السياق: "السفر يسمح بالتصنيف، وهو في الوقت ذاته، يمكننا من تلمس خصائص الكتابة، ما دامت الرحلة نوعا أدبيا يقلص من دور المصادفة، ويقدم لنا، بقدر كبير، قواعد إنتاج النص وقواعد تلقيه معا"[2].

3 – لا يقتصر السفر على فعل الارتحال ماديا، بل إن السفر يعاد إنتاجه على مستوى الكتابة. ملايين الناس ارتحلوا دون أن يكونوا رحلات. السفر ارتحال من خلال النص الذي يصبح رحلة جديدة تضيء الرحلة الفعلية السابقة. وبفضل السفر، في الكتابة، يصبح بإمكاننا أن نتحدث عن خصائص نوعية ميزت الرحلة عن غيرها مثل طغيان الوصف النابع من رحم السرد، إن لم يكن خادما له، فضلا عن خصائص جمالية متعددة أنتجت السارد الجوال الذي يتجول بسرده في كل الأمكنة، مستخدما السرد الموقعي [الطوبونيمي][3] الذي يتجاوز "الطوبونيميا" الشائعة ما دامت الرحلة تعيد صياغة أسماء الأماكن، رؤية ومعجما، بآفاق متنوعة.

أي أنّ الرحلة حكاية سفر، تعكس تجربة ذاتية غنية.

---

[1] عبد الرحيم مودن، أدبية الرّحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1996، ص23- 55.

[2] عبد الفتاح كيليطو، المقامات، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار طوبقال، (د، ط)، 1993، ص127.

[3] عبد الرحيم مؤدن، أدبية الرحلة، ص36.

4 – ولما كان السفر –كما سبقت الإشارة– معيارا تصنيفيا، فإن هذا الأخير [السفر] يسمح بتدعيم خصيصة الأدبية في الرحلة. ولعل كثرة التسميات للارتحال تعود إلى هيمنة السفر من جهة، وإلى التميز النوعي من جهة ثانية. الرحلة –بناء على ذلك– جنس متكامل يوجد في أعلى الهرم، ثم تأتي بعد ذلك أنماط الكتابة الرحلية المشتركة مع الجنس في مكون السفر، والمختلفة معه، من ناحية أخرى، في طريقة الكتابة أو السرد.

5 – من عناصر الأدبية في النص الرحلي، انتماؤها إلى الكتابة البصرية، سواء بالمعنى "التشكيلي"، أو بالمعنى الأدبي ما دام النص الرحلي عبارة عن صور متلاحقة في الزمان والمكان.

في المستوى الأول نجد اهتمام الرحالة بالتخطيط والتشكيل انطلاقا من الخارطة الجغرافية، مرورا برسومات المزارات والأماكن المقدسة أحيانا، وتخطيطات أو رسومات للتقنيات الحديثة من بواخر، وقطارات، وصناعة حديثة تعلقت أساسا بصناعة الأسلحة والمعدات البحرية، ولم يجد الرحالة حرجا في دعم مشاهداته بهذه الرسوم التي قد تفتقد جانبها الجمالي ما دام الهدف هو الجانب المنفعي أو الاستفادة العملية من تجارب جديدة[1].

أما المستوى الثاني فيتعلق بالصورة الأدبية التي قد تصل أعلى مراحلها الجمالية في نصوص محددة حملت على عاتقها تقديم لقطات رائعة يكتب فيها الرحالة بـ[المكان] عوض أن يكتب عن المكان.

وبالمقابل نجد الصورة الأدبية، في أغلبية الرحلات، قائمة على الجانب الوظيفي. أو بعبارة أخرى: لا يهدف الرحالة من تقديم صور المرئيات والمشاهدات الغاية الجمالية، بل يهدف إلى تقديم المعرفة بصورة المكان.

6 – ومن خصائص الكتابة الرحلية تقديم الخلفية الأركيولوجية للموصوفات. فالرحالة، عادة، لا يكتفي بتقديم المرئي أو الآني، بل ينطلق من الموصوف المباشر، بواسطة حركة ارتدادية تسترجع تاريخية

[1] يمكن الرجوع، إلى نماذج من هذه الرسوم عند "الغيغائي" و"الجعايدي" و"الصفار".. للتدليل على ذلك. انظر: عبد الرحيم مودن، مستويات السرد في الرحلة المغربية خلال القرن 19، دكتوراه الدولة [نوقشت بالرباط، 1996 تحت إشراف أحمد الطرايسي أعراب].

الموصوف وتحولاته، ومن ثم، فالرحالة لا يتردد في الحفر في المكان من جهة، وفي النصوص التي عالجت هذا المكان من جهة ثانية.

والكتابة الأركيولوجية، لا تظل حبيسة الماضي، على أهميته، بل إنها تعيد صياغة هذه الأمكنة بـ"طوبوغرافية" جديدة تهدف إلى استكمال الصورة.

7 – تقودنا كل من الخصيصتين السابقتين إلى خصيصة ثالثة يمكن وصفها بالطابع الديداكتيكي، للرحلة. ذلك أن هذه الأخيرة تنطلق من قانون أساسي يتمثل في فعالية النص الرحلي في التحول والتحويل أيضا. التحول يتجسد في انتقال الرحالة من وضع إلى وضع مغاير فكريا وسلوكيا وأخلاقيا. ومن المؤكد أن الرحالة –أي رحالة– يتأرجح، قبل الرحلة وأثناءها أو بعدها، بين أن يكون، على حد تعبير "تودورف مثل الآخر، أو أن يكون الآخر مثل الرحالة[1]. وبين هذين الحدين يمتلك الرحالة تجربته الغنية التي حولته من الجاهل إلى العارف، ومن المعلم إلى المتعلم، ومن ثمة إلى مرسل جديد يعيد صياغة إرساليته نحو متلق يجهل عالم الرحلة بمختلف مستوياته. أما بالنسبة للتحويل فيتعلق الأمر بإخضاع المرئيات إلى مادة قابلة للتداول أو التلقي. ولاشك أن عملية التحويل، المشار إليها أعلاه، تقتضي إيجاد صيغ ملائمة للتواصل سواء على مستوى الموضوعات أو الصيغ الجمالية والأسلوبية.

والتحويل، في نهاية الأمر، جعل تجربة السفر تجربة معيشة ينتقل، بفضلها المتلقي، إلى عوالم الرحلة وفضاءاتها.

8 – استطاعت الرحلة أن تحقق –سرديا– تضافر مكونات الخطاب السردي الصادر عن مواقع ثلاثة:

*السارد [شخصية مركزية]

*السارد [منتجا للسرد]

*السارد [ضميرا مفردا يدل على ضمير الجمع].

[1] تودوروف، الرحالة الحديثون، تر: حسن الشامي، مجلة الكرمل، ع.35، 1990، ص199–203.

في المستوى الأول نجد حضور الشخصية المركزية الساردة من بداية النص إلى نهايته. ومن الضروري أن نلفت النظر إلى أن بعض أنماط الرحلة –الرحلة السفارية أو الديبلوماسية على سبيل المثال– لا تتردد في نسبة الرحلة إلى ساردها بالرغم من وجود "شخصية" صاحب السفارة أو رئيس الوفد المسافر إلى الخارج. وعادة ما يكتفي السارد –الشخصية المركزية– بالإشارة إليه، باسمه الصريح، في ثنايا الديباجة الافتتاحية للرحلة، أو، من ناحية أخرى، بإدماجه تحت عباءة ضمير الجمع في الحل والترحال.

إن حضور الشخصية المركزية في المتن الرحلي يرتبط، فضلا عن المساحة القولية العريضة، بدوره في صنع أحداث الرحلة، وتنظيمها في مسار معين، وبالإضافة إلى ذلك، فمركزيتها تعود إلى دورها في التأويل من جهة وتوزيع مناطق الكلام والحدث [الفعل] على باقي الشخصيات المرافقة للرحلة، من جهة ثانية. والشخصية، في الرحلة، لا تتردد، في بداية النص، في التعريف باسمها ولقبها وموطنها وتاريخ خروجها والأداة المستعملة في الارتحال..الخ. وبالمقابل، تكشف هذه الشخصية عن المرافقين لها بأسمائهم وألقابهم وأوضاعهم المادية والمعنوية ووظائفهم داخل الرحلة، كما أنها لا تتردد في الكشف عن متلقي الرحلة والمحفزين على كتابتها من أصدقاء أومقربين.

الشخصية المركزية إذا في الرحلة هي القَيِّمَة على إنتاج القول، قبل الرحلة وفي أثنائها وبعدها في نهاية الأمر. في المرحلة الأولى ترجع هذه الشخصية إلى مرجعيتها الواقعية والنصية من خلال من سبقها من الرحالة. ولعل هذا ما يفسر إلحاح الرحالة اللاحق على الإحالة على الرحالة السابق. والأمر لا يقف عن حدود الاستفادة العادية أحيانا، أو التخلص من مأزق، في أثناء الارتحال، مفاجئ أحيانا أخرى، بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى اكتساب شرعية الانتساب، من قبل الشخصية المركزية، إلى سلطة مرجعية ثقافية تمنح الشخصية المركزية مصداقيتها وقوتها الرمزية.

في المستوى الثاني –السارد المنتج للسرد– نجد هذا الارتباط البديهي بين المستوى الأول والمستوى الحالي. ومن ثم فإنتاج السرد يخضع لخصوصية السارد سواء من حيث مرجعيته الثقافية عامة، أو من حيث "تقنية" الكتابة أو السرد. ومن ثم، فالسارد، في الرحلة، يمتلك "استراتيجيته" الخاصة في أثناء تقديمه للمرئيات. وعلى الرّغم من امتلاك العديد من المرتحلين لقواسم سردية مشتركة، في مرحلة معينة،

فإن طبيعة السرد عند كل رحالة، على حدى، تظل خاضعة لهذه الاستراتيجية، أثناء استخدام الرحالة للمكتوب والبصري، المكتوب واللهجي، الأليف وغير الأليف، الشرعي والوضعي، الأدبي وغير الأدبي[1].

نأتي، أخيرا، إلى المستوى الثالث من إنتاج السرد، مستوى الضمائر. ومن الطبيعي أن يتكامل هذا العنصر مع العنصرين السابقين استنادا، كما سبق القول، إلى الخطاب الحقيقة.

الضمير في الرحلة ضمير مفرد على الرغم من استعمال الرحالة لضمير الجمع في مواقع محددة. والرحلة، عادة تتأرجح بين الضميرين، دون أن يمنع ذلك من التأكيد على فردانية المتكلم. وطبيعة هذا الاستعمال تعود إلى:

* الملكية الرمزية – بواسطة الضمير المفرد– للنص، بعد أن سطر الرحالة ملكيته المادية –عن طريق اسم العلم الحقيقي– في ديباجة النص من جهة، ونهايته من جهة ثانية.

والبداية والنهاية تنتميان إلى [خارج النص]، أما المتن فهو ينتمي إلى داخل النص مما اقتضى وجود "ملكية رمزية" مغايرة.

* وفي حالة استعمال ضمير الجمع، فالهدف الواضح من ذلك هو إشهاد الآخر، أو المرافق للرحالة، على ما يروى، خاصة أن قسما كبيرا من هذا المروي قد يدخل في الغريب والعجيب وغير ذلك من المستويات الصعبة القابلة للأخذ والرد من قبل المتلقي.

* يتميز ضمير المفرد، وضمير الجمع أيضا، بانتمائه إلى الحقل الصوتي المترجم إلى كتابة. فالأصوات الواردة في الرحلة، مفردا أو جمعا، لا ملامح لها –سواء على المستوى الجسدي أو النفسي– كما أنها أصوات يكتفى، في تقديمها، بالصياغة النحوية المجردة. وفي حالة وجود صياغة سردية معينة تعكس موقفا محددا، فإن ذلك يتم لصالح الصوت المفرد، صوت الرحالة.

9 – إن الأدبية، بهذا المعنى، محاولة للبحث في معمارية الرحلة بحكم أن هذه الأخيرة لم يتم الاهتمام بصياغتها السردية إلا في مرحلة متأخرة، من جهة، كما أن مقاربتها، من هذا الموقع، لم يتعد

[1] وهناك تقنيات عديدة مثل الاستباق أي تقديم ما لم يحدث بعد، والاستلحاق أي إدماج نص لاحق بنص سابق بعد الانتهاء من الرحلة فضلا عن صيغ أخرى. انظر: عبد الرحيم مودن، مستويات السرد، الباب الثاني من الأطروحة.

الإشارة الشكلية السريعة، من جهة ثانية. وظل –من جهة ثالثة– الاشتغال في هذا السياق منصبا على القول، عوض كيفية القول، أي على المضامين قبل الأشكال أو البناء الفكري والجمالي للرحلة.

10 – ولا شك أن تحليل الجانب المعماري للمتن الرحلي يستند إلى هذا المفهوم، مفهوم الأدبية، المرن الذي يسمح للباحث بالالتفات إلى خصوبة المتن الرحلي. تلك الخصوبة القائمة على كون الرحلة من النصوص المهجنة –بالمفهوم الباختيني–[1] التي تتزامن فيها، توازيا وتقاطعا، أنماط وأجناس من الكتابة الأدبية وغير الأدبية، حكايات ومرويات وفتاوي وخرائط ورسوم، وصيغ مقالية ومحطات سردية وأصوات متعددة.. الخ. كل ذلك تحت الهيمنة "الفعلية" لـ"بنية السفر" –كما سبقت الإشارة– القادرة على "توليف" الأنماط السابقة من جهة، وخلق خصائص سردية، من جهة ثانية، تعيد الاعتبار للرحلة من حيث كونها حكاية سفر، قبل أن تكون خطابا جامعا مانعا لكل المعارف والعلوم والمتع ما عدا متعة السفر.

[1] يقول باختين: الجنس الأدبي لا يحتفظ بنقائه من حيث كونه يجمع بين عدة أجناس أدبية دفعة واحدة. انظر: محمد برادة، الخطاب الروائي [باختين]، دار الأمان، الرباط،(د، ط)، 1987، ص28.

13/ أثر أدب الرّحلة في النثر الجزائري (المقّري التلمساني والشيخ محمّد علي دبوز أنموذجا):

اتخذت الرّحلة أهمية كبيرة لدى جلّ الأدباء الجزائريين، ونالت صيتًا وانتشارًا واسعاً، حاملة معها رؤىً وأفكارًا وتجارب، وثقافات جديدة كُنّا نجهلها، فزخر هذا الفن بمؤلفات عدّة عرفها الأدب، وتركت بصَّمتها فيه، فسَّاهمت في إثراء هذا اللون النثري وارتقت به إلى مصاف الآداب الأخرى.

ظلت الرّحلات موضوع اهتمام عديد من العلوم كالجغرافيا والأنثروبولوجيا والتاريخ، وعلم الاجتماع، والتربية والتعليم وغيرها، وكانت مصدرًا رئيسيًا لكثير من الباحثين الذين تأثرت أعمالهم بهذا الفن فأبدعوا وأمتعوا.

إنّ للرّحلة فوائد جليلة تجعلها حاضرة إلى جانب الإبداعات الأخرى ذات قيمة تعليمية، التي تبرز حالة التّمكن من الجوانب العلمية على اختلافها. وقد نوه الإسلام إلى دور الرّحلة في طلب العلم، ودعا إليها راميًا إلى أغراض سامية، لقوله تعالى﴿ **وما كانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمُ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِم لَعَلّهُم يَحْذَرُونَ**﴾ [سورة التوبة، الآية 123]، وطلب العلم في الإسلام يتمحور حول التقفه في الدين واللّغة، والعلوم والصناعات، بالإضافة إلى الفوائد القيّمة التي تعود على صاحبها، أو على قومه وعلى البلاد التي حلّ بها.

من أعظم ما يكسبه صاحب الرّحلة من قيامه بالرّحلات هو العلم والمعرفة، فكم من عالم ذاع صيته بفضل المعارف التي حصل عليها في رحلاته، كما أن مواهب العالم قد تظهر في أثناء رحلته، فقد يحظى في البلاد التي انتقل إليها بحرية التفكير والكتابة، التي ربما لم يحظى بها في بلده، فتعظم مكانته وينتفع النّاس بحكمته فلولا الرّحلة لما أثمر فكره[1]، ليس هذا فقط بل إن الرّحلة جسر بين الثقافات ومرآة للمجتمعات لهذا أثريت الناحية العلمية بفضل هذا التبادل العلمي القائم على الالتقاء بكبار العلماء للأخذ والرواية عنهم والحصول على إجازاتهم العلمية في المراكز التي وصلوا إليها والتي تُعّدُ ينابيع فيَّاضة بالعلم والمعرفة[2].

[1] محمد الخضر حسين، الرّحلات، تح: علي الرّضا التونسي، المطبعة التعاونية، 1976، ص12

[2] عواطف محمد يوسف نواب، الرّحلات المغربية والأندلسية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، (د، ط)، 1996، ص92.

أ/ المقّري التلمساني:

يعدّ المقّري التلمساني من الشخصيات الأدبية التلمسانية، كان كثير الترحال والتجوال، وله العديد من الرّحلات؛ منها:

رحلته إلى المغرب الأقصى: فبعد بلوغه سن الرّشد تاقت نفسه لزيارة العواصم العلمية بالمغرب الأقصى، وهي أول رحلة له كانت بإيعاز من عمّه، كما دفعته، أيضا، أسباب أخرى منها: طلب العلم مباشرة من العلماء، وسعيه للحصول على إجازات.

رحلته إلى تلمسان: عاد إلى بلده، وبقي على اتصال مستمر بأصدقائه وشيوخه حيث كانوا يزودونه بالأخبار والمعلومات، وكان ذلك عن طريق مراسلاتهم له، كما قام بتحرير كتابه" روضة الأس" ترجم فيه لكل من اجتمع معهم من الأعلام في كل من مراكش وفاس، واعترف بجميلهم، وتكلّم في مقدمته عن سلطانهم أبو العباس أحمد المنصور، وكان يسعى للعودة إلى المغرب الأقصى، ومغادرة تلمسان.

كان للمقري العديد من المؤلفات القيّمة والكثيرة أجاد فيها وأفاد، دلّت على تمكّنه وتبحره في العلوم وتميّز بذكائه وقوة حافظته، وهي عديدة؛ نذكر البعض منها فقط:

– روضة الأس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس: ولعلّه أوّل مؤلفاته، ذكرها في كتابه نفح الطيب، موضوعها أدب وتراجم للعلماء والأدباء الذين لقيهم واجتمع بهم في المغرب في أثناء رحلته الأولى والثانية، تحتوى على نصوص نثرية ومقاطع شعرية كما ترجم فيه لشيوخه الذين أجازوه وأخذ عنهم.

– أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: ألفه في أثناء إقامته بفاس، وهو عبارة عن موسوعة أدبية تاريخية حول حياة القاضي عياض، وكلّ ما يتصل بأخباره.

– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب: بدأ تأليفه بعد رجوعه من دمشق إلى القاهرة.

هو موسوعة متكاملة تشمل الأدب والتاريخ وجغرافيا بلاد الأندلس، ونمط حياة أهله وسلوكياتهم وعاداتهم ومقوّمات تميّزهم.

– أسئلة وأجوبة شريفة حوت رقائق لطيفة ودقائق منيفة: وهو مجموعة أشعار في مدح دمشق، وفي أغراض أخرى.

– البدأة والنشأة: كلّه أدب ونظم.

وغيرها من المؤلفات الكثيرة والمتنوّعة التي خلّفها المقّري، والتي كانت ثمرة خبراته وتنقلاته في مختلف البلدان.

ب/ محمّد علي دبوز:

ساهمت الرّحلة في بلورة ثقافة علي دبوز، فبرزت قدرة الأديب على الإبداع، وخير دليل على ذلك أعماله التي جاءت انعكاسًا لما تعلّمه وشاهده في البلدان التي زارها، فساهم في تنشيط الحركة الأدبية ورصد الحياة الثقافية والاجتماعية للشعوب وتصوير حضاراتهم.

إن أهم دور أدته الرّحلة في حياة الشيخ علي دبوز، هو أنه شاهد عيان لمختلف مظاهر الحياة، وبخاصة الناحية العلمية والأدبية، والتاريخية. وآثاره العلمية تعكس لنا ما وصل إلينا من علم غزير، وسعة فهم وحرصه على تدوين تاريخ المغرب الإسلامي أول بأول[1]،كما أن مؤلفاته مادة علمية ثقافية تعبر عن جسر التقاء الأفكار والمعلومات والثقافات.

وفي خضم الحديث عن هذا المؤلف لا يسعنا القول إلاّ أنّه منارة يُهتدى بها طالب العلم، وسلاحًا فاعلاً في الأدب والتاريخ، إذ ترك رصيدًا معرفيًا متميزًا، يتعرف من خلاله على تاريخ الجزائر منذ العهد القديم مرورًا بالعهد الإسلامي إلى غاية العصر الحديث، فالرّحلة أدت دورا كبيرًا في تكوين شخصية الشيخ، وإبراز أسلوبه الأدبي الشيق، فحملت أعماله رسالة سامية استطاع من خلالها أن يخلق لنفسه مكانة بين المفكرين الجزائريين.

[1] عواطف محمد يوسف نواب، الرّحلات المغربية والأندلسية، ص88.

سطع نجم الشيخ علي دبوز في سماء مصر، ولمع في جلّ الفنون الأدبية، إذ ساهم مساهمة فعالة في تطوير مناهج الدراسة بالمعهد الذي درس فيه في بلده، وذلك بإضافة مواد علم النفس، والتربية والمنطق، وتاريخ المغرب الكبير[1]، فكانت أرض الكنانة منبعًا فياضًا في حياة المؤلف، إذ تزود بمختلف أصناف العلوم، وتتلمذ على يد شيوخ كان لهم الفضل في بروز موهبته الفنية، ويكفي أن تكون مصر ولادة لجيل ترك بصمته في تاريخ الأدب العربي على مرّ العصور.

لا ريب في أن اهتمام الأديب بالرّحلة العلمية على، وجه الخصوص، يرجع إلى غايات كثيرة ومتعددة، ما جعل الشيخ علي دبوز يرتحل لطلب المعرفة، فجاب البلاد والعباد، وقطع مسافات طويلة بحثًا عن غايته، فلم يجعل الدنيا مقصدًا له، ولا منبع لشهواته الدنيوية، بل علم أن محاسن ولذات الدنيا مجموعة في تلك المشاهد والعلوم التي رآها في رحلاته، فالرّحلة، إذا، مناط الثقة في العالم وعلمه، حتى قيل " من لم يرحل فلا ثقة بعلمه".

كان علي دبوز رائد النهضة الفكرية والثقافية، في الجزائر إذ وهب إبداعه لإنصاف تاريخ العرب، فاهتّم بالتأليف والتدريس، فجادت قريحته بأعمال بقيت محفورة في الذاكرة الشعبية، لما لها من أهمية تربوية، وتاريخية، وأدبية علمية. دخل عالم التأليف سنة 1950، إذ بدأ كتابة فصوله في تاريخ المغرب العربي الكبير، فأخرج لنا ثلاثة عشر عامًا من العمل المتواصل، وهو موسوعة تاريخية رائعة تحمل تاريخ المغرب الكبير مفصلاً منذ ما قبل التاريخ حتى نهاية القرن الثالث الهجري[2]، يقول عن هذا الكتاب الأستاذ محمد عطية الأبراشي "هذا أول كتاب صفّى تاريخ المغرب من زيف السياسة القديمة، والاستعمار اللاتيني ونادى بالوحدة والتضامن والمحبة والتعاون بين أهل المغرب والعالم الإسلامي".[3]

وتجدر الإشارة بأن المؤلف وجد صعوبات كبيرة في سبيل إخراج هذا العمل الجبار، فسافر إلى أغلب عواصم الشرق والمغرب العربيين لجمع المادة التاريخية من مصادر صحيحة رغبةً في تقصي الحقيقة

1 محمد صالح ناصر، مشايخي كما عرفتهم، دار الريام، الجزائر، 2008، ص159، 160.

2 يوسف الواهج، من أعلام الإصلاح بالجزائر "الشيخ محمد علي الدبوز"، بريان، الجزائر، 1881، ص07.

3 يوسف الواهج، من أعلام الإصلاح بالجزائر "الشيخ محمد علي الدبوز"، ص07.

وسبر أغوار المعرفة الدقيقة ما جعل الباحث يقوم بجولات واسعة لمطالعة المخطوطات الموجودة في الخزائن القديمة داخل الجزائر وخارجها.

أثر أدب الرّحلة في الشعر الجزائري (ابن حمادوش وابن عمّار أنموذجا):

إنّ الرّحلة في غالب الأحوال سلوك حضاري، غايته الإفادة والنّفع للفرد والجماعة، والرّحلة أكثر المدارس تثقيفا وتعليما وتربية للإنسان في كلّ العصور، كما تعدّ الرّحلة اليد التي تمد لتُقرب شعوبا من شعوب وأقوام، فصلت بينها بحار ممتدة، وقفار شاسعة، وجبال شاهقة، واختلاف في الألسن والألوان والأعراف والعادات.

وللرّحلة فوائد أخرى منها ما يحققه الرّحالة من مكاسب علمية وأدبية، وبخاصة إذا امتلك حسَّ البحث والملاحظة والتأمل والحوار وجمال اللغة والأسلوب والرغبة في التحصيل والتدوين.

تتجلى أهمية أدب الرّحلة الأدبية في كون كثير ما أورده هؤلاء الرّحالة في مذكراتهم يمكن أن يأخذ سبيله إلى عالم الأدب والخيال كأنموذج من أرق النماذج على الوصف الفني الحي المتميز بشيء لم نزل نفتقده في أدبنا، وهو" الانصراف عن اللهو والعبث اللفظي والطلاء السطحي، والإيثار للتعبير السهل المستقيم الناضج بغنى التجربة وصدق اللهجة الشخصية، ممّا لا نجده متوافرا عند البلغاء والأدباء المحترفين، ونجده بقوة عند العلماء والفقهاء الدين والمؤرخين وهؤلاء الكتاب الرحالين"[1].

أدب الرّحلة يحفل بكثير من" الأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغية، وجمال اللفظ، وحسن التعبير، وارتقاء الوصف، وبلوغه حدا كبيرا من الدقة، علاوة على ما يستعين به –أحيانا– من أسلوب قصصي، سلس، مشرق، وهذا هو الذي يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرّحلات ضمن فنون الأدب العربي"[2].

إنّ أدب الرّحلة لم يقترب من فن القصة فحسب، بل اشتمل على جميع الفنون الأدبية، وكثيرا ما يلجأ الرّحالة إلى الاستشهاد بأبيات شعرية تبرز أدبيته، سواء كانت من نظم الرّحالة نفسه وهذا يثبت قدرته الشعرية والنثرية معا، وأحيانا أخرى يستعين بأبيات غيره ممّا يؤكد سعة إطلاعه ودقة معلوماته. وقد كان بعض الرّحالة شعراء فدفعهم ذلك لقوله في المواقف المختلفة في أثناء رحلتهم، ولاسيما عند فراقهم لموطنهم وتوديعهم للأهل والأصحاب، وعند ملاقاة العلماء أو الحنين للوطن وربوعه، أو عند الاقتراب من مكّة المكرمة أو المدينة المنوّرة، يقول فؤاد قنديل" الرحلات مصدر فريد لكثير من النصوص الأدبية

[1] أحمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، ص5، 6.

[2] سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، القاهرة، ص8.

شعرا كانت أم نثرا لإنفرادها برواية الكثير من النصوص، فالرحالة حرصوا على أن تضم رحلاتهم النوادر، فأدرجوا فيها كثيرا من قصائدهم الشعرية، رسائلهم النثرية مما له ارتباط بظروف الرّحلة، وهذا الأمر جعل الرّحلات ذات أهمية أدبية خاصة، فأكثر الرحالة لم تعرف لهم أشعار أو كتابات إلا من خلال ما دونوه في رحلاتهم، لذا عدت بمثابة دواوين لأصحابها، ومجموعات ضمت ألوانا من إنتاج عصرهم وأدبائه"[1].

الرّحالة يستعين بالشعر ليعبر عما يختلج في نفسه من مشاعر حركتها مشاهداته وملاحظاته، ومن هؤلاء الرحالة ابن حمادوش وابن عمّار اللذين نقلا أبيات كثيرة في رحلاتهما، وسنعتمد عليهما كنموذجين فقط.

أوّلا/ ابن حمادوش:

إنّ القارئ المتأمل لرحلة ابن حمادوش الجزائري يلفي أنّ صاحبها ضمّنها عددا كبيرا من الأشعار له ولغيره من الشعراء في مختلف الأغراض الشعرية، ولا غرابة في ذلك لأنّ الشعر له وجود ملحوظ في معظم الرّحلات حتى أنّه يعدّ من محكيات الرّحلة مثله مثل الأحاديث والأخبار والمشاهدات والقضايا اللغوية وغيرها[2].

ولهذا عدّت الرّحلات عموما ورحلة ابن حمادوش على وجه الخصوص من أهم المصادر التي حفظت لنا الكثير من النصوص الشعرية من الضياع، بل إنّها تضمنت نصوصا شعرية ربما قد لا نجدها في مصادر أخرى، فلو لم يوظف ابن حمادوش هذه الأشعار في رحلته لما أمكننا التّعرف عليها ولا على أصحابها ولا على الأغراض التي قيلت فيها.

إنّ تضمين الشعر هذا النص الرّحلي احتلّ فضاء ضمن فضاء الرّحلة النثرية ليصبح بنية وموضوعا أساسا في النص واستمرارا للسياق النصي وتنويعا له ليصبح الشعر المتضمن جزء لا يجوز فصله عن الرّحلة، ولعلّ توظيف ابن حمادوش لهذه الأشعار مرده إلى كثرة محفوظاته وثقافته الشعرية وقد يقصد من وراء هذا التوظيف إبراز مهارته وقدرته في النظم والنثر.

[1] عواطف يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى، دار الملك عبد العزيز، الرياض، (د، ط)، 2008، ص18، 19.

[2] الشوابكة عبد الرحمن نوال، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون، عمان، ط1، 2008، ص276.

والقارئ المتصفح لمتن الرحلة يجد أنّ معظم صفحاتها تحتوي على أبيات شعرية والتي كان يأتي بها عادة للتدليل على بعض المسائل وأحيانا يوشّح بها مقدمات كلامه وخواتيمه.

كتب ابن حادوش في مختلف الأغراض، وهو ما استطعنا أن نستشفه من خلال كلامه في الرّحلة حيث يقول" بنيت ديواني على الغزل والنسيب والمراثي ومدح المصطفى"[1].

والواقع أنّ القصائد التي ذكرها في الرّحلة تتناول أغراضا أخرى غير تلك التي ذكرها، باستثناء الرثاء فقد جاء فيها أيضا بالمدح والحنين إلى الأهل والوطن والفخر والشكوى من كساد التجارة ومعاكسة الزمان والاستجازة من علماء المغرب ونحو ذلك، ولا يوجد في القصائد المذكورة في الرّحلة غزل ولا نسيب ولا مدائح نبوية. معنى هذا أنّ لابن حمادوش أشعارا ضائعة قالها في الأغراض التي ذكرها وجمعها في ديوان ما يزال مفقود.

وسنذكر فيما يلي عدد القصائد والقطع التي عثرنا عليها في الرّحلة والأغراض التي قيلت فيها ومطالعها.

1/ القصيدة الأولى التي سجلها في رحلته قالها في مدينة تطوان، ووجّهها إلى الشيخ محمد بن عبد السلام البناني يستجيزه فيها، وهي قصيدة لامية تبلغ اثنتي عشر بيتا مطلعها[2]:

سَمَوْتَ فَلَمْ يَكُنْ بِقُرْبِكَ نَازِلُ فَكُنْتَ في أَوَّجِ العِزِّ تُمْطِرُ بالسُؤْلِ

2/ القصيدة الثانية في ذم أولاد مختار بالمغرب من بخلهم حين مرّ بهم الرّحالة وهو في طريقه من تطوان إلى مكناس، وقد عبّر فيها عن الخوف الذي ساوره هو ورفاقه لأنّ ليلتهم كانت محفوفة بالخطر من أولئك القوم وتبلغ القصيدة تسعة عشر بيتا مطلعها[3]:

ولَيْلَة مُخْتَارٍ يَبِيتُ بِهَا هَمٌّ مَدَى الدَّهْرِ لا يُرْجَى يَحُورُ عَنِ الهَمّ

[1] ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص117.

[2] المصدر نفسه، ص39

[3] المصدر نفسه، ص72.

3/ قصيدة قدّمها وقرأها على الحكيم عبد الوهاب أدراق (طبيب السلطان مولاي إسماعيل وأولاده من بعده) وكان ذلك بمدينة فاس، ومطلعها[1]:

أَيَا سَيّدِي عَبْدَ الوَهَابِ تَحِيَّةً وبُشْرَى لَكُمْ أَهْدَى وأَنْدَى مِنَ الظِّلِ

أَتَيْتُكَ يَا مَلْجَأَ البَرِيَةِ كُلَّهَا تَنُولُنِي عِلْماً فَنَبْرَأُ مِنَ الجَهْلِ

وخَلَّفْتُ أُمِّي والعِيَالَ وَصِبْيَةً كَأَنَّهَا أَفْرَاخُ الحَمَامِ لَدَى الوَصْلِ

والقصيدة في عشرة أبيات.

4/ قصيدة أخرى قدّمها إلى الشخص نفسه، لكن موضوعها هو وصف الحمى التي أصابته عندما كان جالسا في مجلس الحكيم أدراق حيث أصابته الحمى، فخرج من المجلس وذهب إلى بيته فتداوى، وبعد برئه عاد إلى المجلس، ووصف فيها للحكيم ما أصابه، كما وصف مجلس هذا الحكيم الذي قال إنّه كمجلس الملوك وإنّ قصره كقصورهم والقصيدة في أحد عشر بيتا، ومطلعها[2]:

أيَا شَيْخَنَا عَبدَ الوَهابِ سَعَادَةً لِتَعْلَمَ مَا حَازَ الفُؤَادَ مِنَ الحَدْسِ

5/ قصيدة استجاز بها الشيخ أحمد بن المبارك بفاس وهي ثلاثة عشر بيتا وفيها مدح وتذلّل ووصف متشائم لحالة العلوم في عصره[3]:

أَيَا شَيْخَنَا شَيْخَ البَرِيَةِ كُلَّهَا أَسَيِّدِي أَحْمَدُ المُبَارَكُ في الدَّهْرِي

عَلَوْنَ عَلَى أَعْلا ذُرَى المَجْدِ رِفْعَةً فَكُنْتَ فِي أَوْجِ العِزِّ كالكَوْكَبِ الدُرِّيّ

6/ قصيدة أخرى في رثاء الشخص نفسه الذي توفي قبل أن يكتب له الإجازة وتبلغ ثلاثين بيتا، وقد ذكر ابن حمادوش أنّه أوّل من رثى الشيخ ابن المبارك، ومطلعها[4]:

أَفَلْتَ يَا شَمْسَ الغَرْبِ في حُجُبِ الثَرَى وأَبْقَيْتَ فَاسًا في الظّلامِ وفي الغَمّ

---

[1] ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص81.

[2] المصدر نفسه، ص82.

[3] المصدر نفسه، ص83.

[4] المصدر نفسه، ص87.

7/ قصيدة في تهنئة السلطان عبد الله بن إسماعيل على هزيمة ومقتل الثائر أحمد الريفي، وتبلغ القصيدة ثلاثة عشر بيتا ومطلعها[1]:

أَمَوْلاي عبد اللهِ بِشْرُكَ الهَنَا بِكُلِّ الذي تبغِي من الفَتْحِ والنَصْرِ

8/ قصيدة أخرى في نفس السلطان في أثناء ولايته الأولى، أي قبل القصيدة السابقة، ومطلعها[2]:

قَطَعْتَ بِحَاراً مُوهِلاتٍ وَدُونَهَا قِفَاراً لا تأْوِيهَا الوُحُوشُ مَعَ الطَيْرِ

وهي في خمسة وثلاثين بيتا.

9/ قصيدة ذاتية كتبها لما أدركه عيد الأضحى وهو في تطوان بعيد عن أهله ووطنه، وليس له مال وقد تحطّمت السفينة التي كانت ستحمله هو وأصحابه إلى الجزائر، ووصف فيها هطول الأمطار وغربته وكساد سلعته، واجتماع الناس يوم العيد وبقاءه وحيدا يائسا، وقد بلغت القصيدة ثلاثين بيتا. يقول فيها[3]:

لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليوْمِ أَصْبَرَ صَابِرٍ وهَا أَنَا في هَذَا الأوَانِ ذَلِيلُ

أَنُوحُ عَلَى بُعْدِ الدِيَارِ صَبَابَةً نَوَاحِي الثَكَالَى تَحْسَبُونِي جَمِيلُ

10/ رجز في واحد وعشرين بيتا قاله يوم تحطّمت السفينة التي كان سيسافر عليها من تطوان إلى الجزائر، وقد عبر فيها عن لوعة الحنين إلى أطفاله وزوجته ومطلعها[4]:

أَيَا أُمَّ عَبْدٍ صَبْرِي تَصْبُرِي وأَيْقِنِي أنِّي عَلَى الأمْرِ جَرِيٌ

11/ قصيدة هجا فيها الشاعر المفتي ابن علي وافتخر عليه فيها بنفسه وشرفه وذكر فيها أنّه على الرّغم من كونه لم ينل حظا في الدّنيا فإنّه يكفيه مجدا انّه من آل علي بن أبي طالب وأنّ أجداده من قبيلة بني

[1] ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص97.

[2] المصدر نفسه، ص116.

[3] المصدر نفسه، ص108.

[4] المصدر نفسه، ص109.

هاشم، وهي في أربعة عشر بيتا[1]:

خَرَجْتُ ذَلِيلاً لا أَعُود لِمِثْلِهَا وَهَلْ يُجْمَعُ السَيْفَانِ وَيْحَكَ في غِمْدِ

فَإِنِّي من اللّائين فَوْقَ الثَّرَى تَرَى وَأَنْفُسَنَا فِي العَرْشِ تَابِعَةُ المَجْدِ

هذه، إذا، نماذج من أشعار ابن حمادوش وجدناها مبثوثة في رحلته فارتأينا الإشارة إليها لكونها تشكل نموذجا لصاحبها ولشخصيته وأسلوبه.

ثانيا/ ابن عمّار:

رحل ابن عمّار إلى مجموعة من البلدان العربية كتونس والمغرب والحجاز بهدف طلب العلم والزيادة في التحصيل ومخالطة العلماء لتصحيح معلوماته أو توثيقها، كما نعرف أنّ ابن عمّار قد تلقى تعليمه الأول في بلاده الجزائر، وأنّ ثقافته هي ثقافة أدبية دينية عميقة.

وفي هذا المقام نذكر أنّ ابن عمار عالج في رحلته الحجازية موضوع وصف رحلته في كلّ مراحلها ومناسكها فكانت رحلته من النماذج الحيّة الصادقة؛ وقد أورد فيها الكثير من الشعر من قصائد ومولديات لشعراء جزائريين ومشارقة ومغاربة، كما زخرفها بتلك المقدمات النثرية المرموقة والمتقنة بالسجع فتأنق في كل الأنواع الأدبية.

وسنذكر فيما يلي عدد القصائد والقطع التي عثرنا عليها في الرّحلة والأغراض التي قيلت فيها:

1/ لابن عمار أبياتا رائعة في وصف الطبيعة، جادت بها قريحته الشعرية؛ فقد جرت بينه وبين ابن عليّ مساجلة شعرية في أثناء تنزههما حين ترافقا، يقول فيها[2] (الكامل):

أَنَسِيمَ رَوْضٍ رَقَ فِي سَرَيَانِهِ وَثَنَى القَضِيبُ فَرَاقَ فِي مَيَلانِهِ

بَعَثَتْ أَرَائِجُهُ السَّلْوَ لِخَاطِرِي فَتُخَلَّصُ المَحْزُونَ مِنْ أَحْزَانِهِ

أَمْ رَوْضَةٌ غَنَاءُ رَاقَ رَوَاؤُهَا خَلَعَ الرَبِيعُ بِهَا حُلَى أَلْوَانِهِ

وَتَبرَّجَتْ كالخُودِ فِي مُوشِيةٌ مِنْ وَرْدِهِ المَطْلُولُ مَعَ سُوسَانِهِ

[1] ابن عمار، نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب، ص109.

[2] المصدر نفسه، ص45.

وَبَدَا لِذِلْقِ الطَيْرِ فَوْقَ غُصُونِهَا شَدْوٌ يُثَارُ الوَجْدُ مِنْ أَلْحَانِهِ

عبّر ابن عمار في هذه الأبيات عن مدى سعادته، وفرحته بالربيع الذي كان له صدى كبيرا في نفسه ووجدانه، ففي هذا الفصل تنجذب الجوارح إلى ظواهره، ورياضه البديعة الخلابة المطرّزة بأشكال مختلفة، وألوان زاهية.

ألقت الطبيعة بسحرها على نفس الشاعر، فحرّكت فيه انفعالات وأحاسيس مختلطة جعلته يذوب فيها.

2/ وللشاعر نفسه قصيدة أخرى في وصف إحدى الرّياض[1] (الكامل):

فِي رَوْضَةٍ نَسَجَ الرَّبِيعُ بِسَاطَهَا مِنْ سُنْدُسٍ وَوَشَى مَطَارِفَهَا المَطَرْ
غَنَّاءً تُسْلِي رَوْنَقًا وَنَضَارَةً قَلْبَ الشَّجِيّ إِذَا أَجَالَ بِهَا النَظَرْ
بَاكَرْتُهَا وَنَسِيمُهَا مُتَأَرِّجٌ يُشْفِي الذِي سَرَتْهُ أَكْمَامَ الزَّهْرِ

أسرت هذه الروضة أعشار قلب ابن عمار بزخرفها وجمالها البديع، وما زاد من حسنها وروعتها هو هطول المطر عليها، فزيّن حواشيها، ضف إلى ذلك النسيم العليل الذي يداعب أوراق الشجر وأغصانها، فتهتز وتتمايل، وكأنّها تستمع إلى ألحان موسيقية.

3/ ولابن عمار صاحب الرّحلة أشعار في الغزل، منها قوله [2] (الكامل):

فَسَمَا بصبْحِ جَبِينكِ الوَهَـاجُ مَا أَنْتِ إلا رَاحَتِي وَعِلَاجِي
يَا مَنْ إِذَا مَا لَاحَ بَارقُ وَصْلِهِ يُخْفِيهِ جُنح مِنْ رَقِيبــكَ دَاجِ
أَتَرَى يُفَاجِئُنِي السُّرُورَ بِلَيلـةِ فِيهَا مَحْيَاكِ البَديعُ سِراجِــي
وَتَبِيتُ مُلْتَزِمِي لِنَحْرِكِ حَيثُ لا أَحَد يصدُّ وَلَا الرَّقِيبُ يُفَاجِي
وحَلَاكِ أَزْهَارِي وَخَدُّكِ رَوْضَتِي واللَّفْظُ رَاحِي والرُّضابُ[3] مِزَاجِي

اعتمد ابن عمار في هذه الأبيات على كثرة التشبيهات حيث وصف شوقه وحنينه لمن يحب، والذي ينتظر وصله بفارغ الصبر، فهو الذي يُنير له ليله بمحياه الجميل، وطلّته البهية مثل الأزهار.

[1] ابن عمار، نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب، ص91.

[2] المصدر نفسه، ص73.

[3] الرّضاب: الريق المرشوف، أو فتات المسك، أو ما تقطّع من الندى على الشجر ونحوه.

4/ أشاد ابن عليّ بابن عمار، وبسحر بيانه، وبامتلاكه موهبة أدبية لم تتأت لغيره، فردّ عليه ابن عمار بقصيدة تحمل نفس الوزن والروي، قائلا[1] (الكامل):

لَمْ أَدْرِ مَنْ أَقْوَى عَلَى سَلْبِ النُّهَى إلحَاظَهُ أمْ شِعْرُ فَرْدِ زَمَانِهِ
العَالِمُ العِلْمُ الذِي أَحْيَا لَنَا مَا قَدْ أَمَاتَ الدَّهْرُ مِنْ نَعْمَانِهِ
الحَافِظُ البَحْرُ مَلَأَ البَسِيـ طَةَ حِفْظُهُ وازْدَادَ فِي فَيَضَانِهِ
رَاوِي الحَدِيثَ المُصْطَفَى ابْنُ عَلِي الـ مَعْدُودِ فِي ذَا العَصْرِ مِنْ أَعْيَانِهِ

أثنى ابن عمار على ابن عليّ بحيازته الشرف والمعالي، فهو العالم الجليل، والراوي للحديث الشريف، والحافظ للقرآن الكريم. نال احترام النّاس وتقديرهم له.

5/ كما كتب ابن عمار قصيدة أخرى خاطب فيها ابن عليّ، ومادحا إيّاه بامتلاكه موهبة شعرية فذّة، حيث قال[2] (الكامل):

يَا بَارِعاً برزَتْ سوَابِقُ فِكْـرِه فِي حَلَبةِ الشُّعراءِ وَالكتّابِ
صنعت المَعَانِي فِي انتظَامِكَ أَعْيُناً وَرَقَائِقُ الأَلْفَاظِ كالأهْـدَابِ
أبرزتَها في خَدْرِ فِكْرِكَ خَـرْداً تَخْتَالُ فِي حُلَلٍ مِن الآدابِ
ذِهْنٌ يَسيلُ وَفِكْرةٌ مَشْبُوبَـة وَذَلِيقُ نُطْقٍ صَادِعٍ بصوابِ

6/ تنافس الشعراء الجزائريون في كتابة قصائد المديح النبوي فكان التنافس على أشده في نظم أجود المدح، وأحسن الثناء. فمن ذلك قصيدة موشحة لابن عمار، يقول فيها (الرمل):

يا نَسِيماً باتَ مِن زَهرِ الرُّبَا يَقْتَفِي الرَّكبانْ
أحمِلَنَ مِنّي سَلَاما طَيّبَـا لأهلِ البـانْ
اقرَأن مِنّي سَلَاما عَبِقَا إنْ بَدَتْ نَجْدُ
إنَّ لِي قَلْبَا إلَيْهَا شيّقَـا شَفَّهُ وَجْـدُ
وفُؤَادِي يجْتَنِيهَا حَرْفا وضَنَي يَعْدُو
ودموعُ العينِ تَهمى سُحُبًا قَطْرُهَا هَتَّانْ[3]

[1] ابن عمار، نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب، ص46.

[2] المصدر نفسه، ص55.

[3] هتن الدمع: سال، وجرى دمعه قطرة قطرة.

والكَرَى[1] عنْ مُقْلَتِي قَدْ غَضِبا وجَفَا الأَجْفَانْ

يَا رَعَى اللهُ فُؤَادِي كمْ لَهُ للحِمَى تَـوْقُ

كلَّمَا حَثَّ الرَّكْبَانَ بزله هزَّهُ شـوْقُ

وحَنِيناً يَتَقضَى لَيْلُـهُ إنْ سَرَى برقُ

لا تسلْ عنِّي إذَا مَا اطربَا سأتقِ الأظعانْ

وبآرامِ اللوَى قدْ شَبَبَـا وظبَا نُعْمـانْ

استهل ابن عمّار قصيدته بمقدّمة غزليّة صوفيّة. وصف فيها حنينه إلى رؤية المصطفى صلى الله عليه وسلم، وشوقه إلى زيارة البقاع المقدّسة كالحرم الشريف وغيره، وتحدث عن الرّكب المتوجّه إلى المشرق لأداء فريضة الحجّ، وزيارة مكّة حيث بيت الله الحرام، والمدينة حيث قبر النبي صلى الله عليه وسلّم.

مدح ابن عمّار في موشحته النّبي صلى الله عليه وسلّم منوّها بفضل شهر ربيع الأوّل الذي ولد فيه، وذكر شمائله الزكية الندية مستعرضا سيرته عليه أفضل الصلاة والسلام منذ ولادته حتى وفاته متحدثا عن مرضعته، ومعجزاته التي أكّدت صحة نبوته كانطفاء نيران فارس، وانهداد إيوان كسرى.

كما أشار إلى غزوات الرّسول صلى الله عليه وسلّم مع الكفار، وقصة اختبائه عليه الصلاة والسلام مع أبي بكر الصديق في الغار، وتحدث، أيضا، عن الإسراء والمعراج دون أن ينسى أبرز معجزة للرّسول صلى الله عليه وسلّم ألا وهي القرآن الكريم الذي أُنزل عليه منجما، فأخذ يأمر المشركين وينهاهم متحدّيا فصحاء العرب، ومعجّزا إياهم.

ويختم ابن عمار قصيدته بمدح الرّسول صلى الله عليه وسلّم؛ فقد طابت أوقاته بذكره عليه الصلاة والسلام، ويتمنى زيارته والوقوف على تربته الطاهرة الزكية، ثمّ طلب الشفاعة، وأنهاها بالدعاء.

وبهذا فإنّ الرّحلة تعدّ عماد التلاقي والاتصال وأساس المعرفة والاطلاع، فهي تساعد على تنمية المعارف وتطويرها وتساهم في تهذيب النفوس وتقويم الطباع، فهي أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، فالسفر درس تجريبي، ومدرسة تعلم الناس وترشدهم إلى الصواب.

[1] ران الكرى في عينيه : إذا غلبه النُّعاس.

حاولنا من هذه المحاضرات تقديم مفهوم أدب الرّحلة، فتناولنا في هذه الدّراسة عرض كتابة الرّحلة والكشف عن مكوّناتها وأصنافها، ورصدنا الاتجاهات الأساسية التي عرفتها كتابة الرّحلة الجزائرية، والتي كانت في غالبها باتجاه الحرمين الشريفين؛ إذ كان الحجاز المقصد الأوّل للرّحالة الجزائريين حيث خلّفوا رحلات نثرية وأخرى شعرية (فصيحة وعامية).

لم تقف الرّحلة الجزائرية عند الغرض الدّيني فحسب، وإنّما تنوّعت وتعدّدت بتعدّد الأغراض والمقاصد، فظهرت الرّحلات العلمية والسفارية والاستطلاعية والتجارية وغيرها.

وينبغي التنويه هنا إلى أنّ الأدباء الجزائريين أسهموا مساهمة كبيرة في مجال أدب الرّحلة، ولا سيّما خلال العهد العثماني، حيث أقبلوا عليه إقبالا لا مثيل له من قبل.

أمّا في العصر الحديث فظهرت رحلات كثيرة ومتنوّعة حيث حازت خلالها مساحة هامّة في الساحة الأدبية، وهنا لمسنا بروز اتجاهين للرّحلات منها ما كان باتجاه الوطن العربي – وهو المعهود–، والآخر – وهو الجديد– كان باتجاه الغرب وولوع الرّحالة بالتطوّر الحضاري والثقافي الذي حقّقه ووصل إليه.

وقد تعرضنا من خلال ما تطرقنا إليه إلى بنية النص السردي الرّحلي، وأبرز مكوّناته، ذلك أنّ الرّحلة جنس يختلف عن باقي الأجناس النثرية الأخرى حيث يؤدي السارد دور المسرود له، فضلا عن دور الوصف فيها، حيث يشكل دينامية للسرد، وهو المحور الذي يدور عليه.

كما أبرزنا أدبية الرّحلة، أي الخصائص التي تجعل من الرّحلة نصا أدبيا، واستحقاقها لمكانتها بين الأنواع الأدبية الأخرى.

كان للرّحلة تأثيرا واضحا وجليّا على النثر والشعر الجزائري، وهذا ما شاهدناه من الخلال النصوص التي قمنا بدراستها، حيث أدّت الرّحلة دورا كبيرا في الكشف عن مختلف الثقافات الإنسانية الثقافية واللغوية والدينية وجوانب الحياة اليومية؛ فقد عبّرت عن تمازج ثقافي وتفاعل فكري، فتلاقحت الثقافات وتحاورت ضمن مبدأ التّأثير والتّأثر.

(1) القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

(2) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البُخاري، بحاشية السندي، دار المعارف، بيروت، 1978، ج1.

أوّلا/ المصـــــادر:

(3) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، إشراف: عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، (د، ط)، (د، ت).

(4) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكرات)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ط)، (د، ت).

(5) أحمد فارس الشدياق، الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبأ عن فنون أوربا 1834-1857، حررها وقدم لها: قاسم وهب، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2004.

(6) أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الإقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.

(7) أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير" باي الغرب الجزائري" إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح: محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1969.

(8) الحاج ابن الدين، رحلة الأغواطي في شمال أفريقيا والسودان والدرعية، تح: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية، الجزائر، 2011.

(9) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دار الجيل، بيروت،(د، ط)، 1993.

(10) حسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008.

(11) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تح: المنصف الشنوفي، شركة أوربيس للطباعة، تونس، ط2، 2002.

(12) خير الدّين الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002.

(13) ديوان الإمام الشافعي، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط 3، 2005.

(14) ديوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تح :عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2005.

(15) أبو راس المعسكري، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982.

(16) رفاعة رافع الطهطاوي، تلخيص الإبريز في تلخيص باريز، تقديم: الصغير بن عمار، موفم للنشر، الجزائر، (د، ط)، 1991.

(17) سليمان بن الصيام، أحمد ولد قاد، محمد بن الشيخ الفغون القسنطيني، ثلاث رحلات إلى باريس 1852، 1878، 1902، تقديم وتحقيق : خالد زيادة، دار السويدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، أبو ظبي، بيروت، ط1، 2005.

(18) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939.

(19) أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعزّ الحقير في التعريف بالشيخ أبي مدين وأصحابه رضي الله عنهم، تح: أبو سهل نجاح عوض صيام، علي جمعة، دار المقطم، القاهرة، ط1، 2002.

(20) أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعزّ الحقير الحقير في التعريف بالشيخ أبي مدين وأصحابه رضي الله عنهم، شرحه وحققه: محمد الفاسي، أدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.

(21) أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدّولة الحفصية، تقديم: محمد الشاذلي النيفر، تح: عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.

(22) أبو العباس أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1902.

(23) أبو العباس أحمد المقري، رحلة المقّري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004.

(24) أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، (د، ط)، (د، ت).

(25) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمّى "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر "، ضبط المتن: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج6.

(26) عبد الرحمن بن بن خلدون، رحلة ابن خلدون (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا)، عارضها: محمّد بن تاويت الطّنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.

(27) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة (وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، ضبط المتن: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001.

(28) عبد الرزاق بن حمادوش، رحلة ابن حمادوش الجزائري" لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، تح: أبو القاسم سعد الله، لمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

(29) علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تح: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1991.

(30) علي ابن أبي زرع الفاسيّ، الذخيرة السينية في تاريخ الدولة المرينية، (د، ط)، (د، ت).

(31) عمار طالبي، ابن باديس: حياته وآثاره، الشركة الجزائرية، الجزائر، ط1، 1986.

(32) القاسم التجيبي السّبتي، برنامج التُجيبي، بقلم: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981.

(33) أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة، بيروت، تونس، ط1، 1982.

(34) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، شرحه وضبطه وقدّم له: يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003.

(35) محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي 1952- 1954، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ج4.

(36) محمد الصغير بناني وآخرون، مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية، ، شركة دار الأمة، الجزائر، (د، ط)، 2004.

(37) محمد بن عبد المنعم الحِمْيَري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1975.

(38) محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة،(د، ط)، 1349هـ.

(39) المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988.

(40) أبو هلال العسكري، كِتَابُ الصِّنَاعَتَيْن الكتابة والشّعر، مطبعة محمود بك، جادة أبي السعودة، ط1، 1320هـ.

(41) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (د، ط)، 1977.

ثانيا/ المراجـــــع:

(42) أحمد أبو سعد، أدب الرّحلات وتطوره في الأدب العربي، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط1، 1961.

(43) أحمد بن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية – دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني –، دار الثقافة، دار البيضاء، المغرب، 1985.

(44) بشير ضيف، فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، منشورات ثالة، الجزائر، (د، ط)، 2007.

(45) بلعابد عبد الحق، عتبات جيرار جنيت من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.

(46) جورج غريب، أدب الرّحلة تاريخُه وأعلامُه " المِسعُودي، ابن بطوطة، الرّيحاني "، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1972.

(47) جيرالد برنس، علم السرد (الشكل والوظيفة في السرد)، تر: باسم صالح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (د، ت).

(48) حسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2 .

(49) حسني محمود حسين، أدب الرّحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1983.

(50) حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.

(51) حسين نصّار، أدب الرّحلة، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1991.

(52) حميد خروف ، الربيع جصاص، علم اجتماع الثقافة، منشورات منتوري، قسنطينة، (د، ط)، 2003.

(53) حميد لحميداني، بنية النص السّردي (من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1991.

(54) زكي محمد حسن، الرّحالة المسلمون في العصور الوسطى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، (د، ط)، 2012.

(55) سارة ميلز، الخطاب، تر: يوسف يغول، منشورات مخبر الترجمة، جامعة منتوري، قسنطينة، ط1، 2004.

(56) سامي بن عبد الله المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مكتبة العبيكان، الرياض، ط6، 2006.

(57) سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، القاهرة، ط3،1992.

(58) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، (د، ط)، 1997.

(59) سعيد يقطين، السّرد العربي مفاهيم وتجلّيّات، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.

(60) سعيد يقطين، الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997.

(61) سيد حامد النساج، رحلة التراث العربي، دار المعارف، ط1، 1905.

(62) سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، القاهرة.

(63) شعيب الحليفي، الرحلة في الأدب العربي " التجنيس، آليات الكتابة، خطاب متخيل "، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.

(64) شكري محمد عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة الجيزة العامة، ط2، 1992.

(65) الشوابكة عبد الرحمن نوال، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون، عمان ، ط1، 2008.

(66) شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، مصر، ط3 .

(67) صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1997، ص85، 86.

(68) عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 1992.

(69) عبد الرحيم مودن، أدبية الرّحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1996.

(70) عبد الفتاح كيليطو، المقامات، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار طوبقال، (د، ط)، 1993.

(71) عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، طنجة، ط2، 1960.

(72) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضود، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966.

(73) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت(1998).

(74) عبد الهادي التازي، مقدمة كتاب رحلة ابن بطوطة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، تح: عبد الهادي التازي، الرباط، 1997.

(75) علي مراشدة، بنية القصيدة الجاهلية (دراسة تطبيقية في شعر النابغة الذبياني)، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2006.

(76) عليمة قادري، نظام الرحلة ودلالاتها " السندباد البحري- عيّنة "، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006.

(77) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1983.

(78) عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين – دراسة تحليلية مقارنة -، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996.

(79) عواطف يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى، دار الملك عبد العزيز، الرياض، (د، ط)، 2008.

(80) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996.

(81) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998.

(82) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د، ط)، 1983.

(83) أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري حياته وآثاره، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د، ط)، 1982.

(84) مجموعة مؤلفين، نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانيين الروس)، تر: إبراهيم الخطيب، المغربية للناشرين المتحدين ومؤسسة الأبحاث العربية، ط1، 1983.

(85) محمد الخضر حسين، الرّحلات، تح: علي الرّضا التونسي، المطبعة التعاونية، 1976.

(86) محمد صالح ناصر، مشايخي كما عرفتهم، دار الريام، الجزائر، 2008، ص160/159.

(87) محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، (د، ت).

(88) محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610 - 869هـ)، دار القلم، الكويت، ط1، 1985.

(89) أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ص157.

(90) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي قبل البعثة والسيرة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط7، 1991.

(91) مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د، ط)، 1965.

(92) أبو معاذ موسى بن يحيى الفيفي، الحِوَار أصوله وآدابه، وكيف نربي أبناءنا عليه؟، تقريظ: عبد الغفور عبد الحق البلوشي، دار الخضيري، المدينة النبوية، 1427هـ.

(93) مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.

(94) ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الأمان، الرباط، ط2، 1987.

(95) يادكار لطيف الشهرزوري، جماليّات التلقّي في السَّرْد القُرآني، دار الزمان، دمشق، سوريا، ط1، 2010.

(96) يوسف الواهج، من أعلام الإصلاح بالجزائر "الشيخ محمد علي الدبوز"، بريان، الجزائر، 1881.

ثالثا/المعـــــــاجم:

(97) الأزهري، تهذيب اللغة، تح: عبد الله دردیش، مراجعة: محمد علي النجار، (د، ت)، ج5.

(98) إسماعيل بن حمّاد الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984، ج4.

(99) ابن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، دار المعارف، حيدر أباد، ط1، 1344هـ.

(100) رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980، ج5.

(101) ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د، ط)، (د، ت)، ج1.

(102) المعجم الوسيط، مصر، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004.

(103) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د، ط)، (د، ت)، ج14.

رابعا/الدّوريّـــات والمجلات:

(104) أحمد المنور، أسفار وذكريات في فرنسا، جريدة السلام، ع1301/ 1307/ 1315/ 1321/ 1327/ 1339/ 1387 من فيفري إلى ماي 1996.

(105) أحمد المنور، مذكرات عائد من الجماهيرية، جريدة العرب، لندن، ع6، 21، 22 نوفمبر، 1991.

(106) إسماعيل زردومي، تقنيات السرد في رحلة فيض العباب وإفاضة قداح الآداب، يوليو، كلية العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع5، 2005.

(107) بلقاسم بلعرج، بونة (عنابة) كما وصفها الرحالة العرب والغربيون، حوليات جامعة قالمة للعلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة 08 ماي 1945 قالمة، ع1، 2007.

(108) تودوروف، الرحالة الحديثون، تر: حسن الشامي، مجلة الكرمل، ع.35، 1990.

(109) حمزة بوكوشة، أربعون يوما في المغرب الأقصى، مجلة البصائر، السلسلة 2، العدد33، 12 أفريل 1948.

(110) عبد الله بن أحمد بن حامد، " الرّحلات المكية الحديثة: رؤية في بناء الرحلة واتجاهاتها "، حوليّة كليّة المعلّمين، أبها، ع10، 1427هـ.

(111) محمد الفاسي، الرّحالة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق، العدد2، السنة2، نوفمبر، 1958.

(112) محمد محمود الخزعلي، " لسان الدين بن الخطيب وأدب الرحلة "، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج18، ع39، ذو الحجة 1427هـ.

(113) محمود بوزوزو، من وحي البرلمان الفرنسي، مجلة البصائر، السلسلة 2، العدد13، 10 نوفمبر 1974.

خامسـا/ الرسائــل الجامعيــة:

(114) زردومي إسماعيل، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم (أطروحة دكتوراه دولة في الأدب القديم)، جامعة الحاج الأخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، باتنة، (رسالة الكترونية).

(115) عبد الرحيم مودن، مستويات السرد في الرحلة المغربية خلال القرن 19، دكتوراه الدولة [نوقشت بالرباط، 1996 تحت إشراف أحمد الطرايسي أعراب].

(116) محمد مشرف خضر، بلاغة السّرد القصصّي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه في الآداب، إشراف: عبد الرحيم محمود زلطا، محمد عبد المطلب مصطفى، جامعة طنطا، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، الإسكندرية.

1– الرّحلة في الأدب العربي.....3– 21

١ مفهوم أدب الرّحلة.....3- 5

أ/ الرّحلة لغةً.....3

ب/ الرّحلة اصطلاحا.....3- 5

٢– أدب الرّحلة: تاريخها ونشأتها..... 5- 21

أ/ أدب الرّحلة قديما.....5- 9

ب/ أدب الرّحلة عند المغاربة والأندلسيين.....9- 21

1/ ابن جُبير..... 12

2/ العبدري..... 13

3/ ابن رُشَيْد السّبتي.....13

4/ أبو القاسم التُجَيْبي السّبتي.....14

5/ أحمد التّجاني التونسي.....14

6/ لسان الدّين بن الخطيب.....15- 16

7/ إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النُمَيْرِي..... 16

8/ أبو البقاء البلوي.....16

9/ عبد الرحمن ابن خلدون.....16- 17

10/ ابن بطّوطة.....17- 21

2/ الرّحلة في الأدب الجزائري.....22– 25

3/ ابن الفكون (حسن بن عليّ القسنطيني).....26– 30

4/ رحلة ابن قنفذ القسنطيني.....31– 51

– بنية رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير " لابن قنفذ القسنطيني.....34- 40

١/ المقدمة.....34- 35

٢/ السّفر (الرّحلة).....35- 37
٣/ الخاتمة.....38
* دراسة البِنْيَة.....38- 40
*/ أسلوب رحلة ابن قنفذ.....40- 45
*/ الوصف في رحلة ابن قنفذ.....45- 48
*/ الحوار في رحلة ابن قنفذ.....48- 51
5/ رحلات العهد العثماني.....52– 54
6/ الرّحلات النثرية.....55– 64
أ/ الرّحلات العلمية.....55- 56
ب/ الرّحلة الرسمية.....57- 58
1/ رحلة محمّد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري لابن هطال.....57
2/ رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي.....58
ج/الرّحلة الحجازية.....58- 64
1/ رحلة " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" للورثيلاني.....59- 60
2/ رحلة المقري إلى المغرب والمشرق.....60- 61
3/ رحلة نحلة اللبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب لابن عمار.....62
4/ رحلة فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته لأبي راس المعسكري.....63- 64
7/ رحلة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال لابن حمادوش.....65– 74
*/ قراءة في العنوان.....66- 68
*/ لغة الرّحلة وأسلوبها.....69- 70
*/ التراث الثقافي في رحلة ابن حمادوش.....70- 74
العادات والتقاليد.....70- 74
8/ الرّحلة في الأدب الجزائري الحديث.....75– 81
9/ بنية النص السردي الرّحلي(رحلتي إلى المغرب لأبي القاسم سعد الله أنموذجا).....82- 88

1- المقدمة.....84- 85

2- بِنْيَة السَّفَر.....85- 88

3- الخاتمة.....88

10/ مكوّنات الخطاب الرّحلي(رحلتي إلى المغرب لأبي القاسم سعد الله أنموذجا)....89– 98

1- الوصف.....89- 91

2- السرد.....92- 98

أ- الحاكي أو الراوي (الرحالة).....93- 94

ب- المحكي (الخطاب الرّحلي).....94

ج- المحكي عنه (السفر).....94- 95

3- المعرفة.....95- 98

11/ أدبية الرحلة 1.....99– 103

12/ أدبية الرّحلة 2.....104– 109

13/ أثر أدب الرّحلة في النثر الجزائري.....110– 114

أ/ المقّري التلمساني.....111- 112

ب/ محمّد علي دبوز.....112- 114

أثر أدب الرّحلة في الشعر الجزائري.....115- 123

أوّلا/ ابن حمادوش.....116- 120

ثانيا/ ابن عمّار.....120- 123

خاتمـــــــــة.....124

قائمة المصادر والمراجع.....125– 133

فهرس الموضوعات.....134– 136